كامل الشناوي

اعترافات أبو نواس

الكتاب: اعترافات أبو نواس

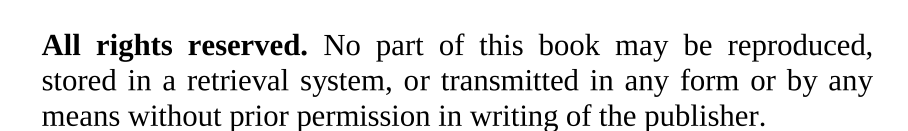
الكاتب: كامل الشناوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

الشناوي، كامل
اعترافات أبو نواس / كامل الشناوي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٧ – ٠٨٢ – ٩٩٠ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٩٣٠٩ / ٢٠٢٠

اعترافات أبو نواس





ليالي "أبو نواس" مع أستاذه الأول

... أستاذه الذي علمه الشعر والكفر والمجون

أبو نواس، الشاعر، الساحر، العربيد.. أبوه هانئ، كان جندياً ثم اشتغل بحياكة الملابس، ورعى الغنم. وأمه "جلبان" امرأة لعوب. سلبت لب والده وتزوجته، فلما مات أحبت فتى اسمه العباس، وجعلته زوجاً لها، وكانت صناعته الوحيدة أنه زوج أم أبي نواس!

من شعراء القرن الثاني الهجري. اسمه ابن هانئ، وكنيته أبو نواس، أو ذو نواس.

كان عصره عصر العلم والمعرفة والحضارة، عصر الفتن، والانقلابات السياسية، والثورات الفكرية، فقد ولد عندما كانت دولة الأمويين في طريقها إلى الظل، وكانت دولة العباسيين تأخذ مكانها تحت الشمس. وفي عهد هذه الدولة اتسعت اللغة العربية، لثقافة الصين، والهند، وفارس، والرومان، واليونان، وأبيحت حرية الفكر، وحرية التعبير، وحرية العقيدة، حرية الهدى والضلال، حرية التقوى والفجور! حرية السمو إلى البحث عن الحقائق، وحرية التدحرج إلى المجون والانحلال.

وسما أبو نواس.. وتدحرج! بحث وعبث.. كفر وتاب.

ما أكثر الشبهات التي تحوم حول هذا الشاعر..!

هل كان حائراً بين الشك واليقين؟ هل كان مؤمناً عاصياً، هل كان بلا دين؟

ما حقيقة أمه "جلبان"؟ لماذا انتقلت من "الأهواز" إلى مدينة "البصرة"؟ كيف كان بيتها الذي أعدته لاستقبال العشاق.. لقد كانت لا تكتفي بتقديم الخمر والطعام لروادها، بل كانت تقوم أيضاً بتقديم النساء للرجال. والرجال للنساء. وتعطيهم الفرش والغطاء.. وتغريهم بأن يبث بعضهم بعضاً لواعج الحب، والشوق، والشهوة، وكان أبو نواس يعيش خارج البيت.. في الليل يطلب العلم بمسجد البصرة، على أساتذة اللغة والفقه والأدب، والحديث، وتفسير القرآن، وفي النهار يشتغل صبي عطار!

لقد حكم التاريخ على أبي نواس بالميوعة، والانحلال، والخلود!

حكم التاريخ على أبي نواس بالفساد وألقى القبض على الشاعر الفاجر والبة بن الحباب واتهمه بأنه أول من أفسد أبا نواس! فقد اغتصب أبا نواس من العطار، وأخذه إلى "الكوفة" حيث أقاما معاً في بيت واحد، وفراش واحد، وكان والبة أستاذاً كبيراً في الشعر، والزندقة، والفجور.. وكان يجهر بزندقته ويتهتك في فجوره.

.. وكان اسمه يدوي في المدائن الثلاث الكبرى: بغداد، والبصرة، والكوفة. وكانت الكوفة موطنه، ومحل إقامته. وهو من قبلية عربية، ولكن خصومه طعنوا في نسبه. فقد كان وجهه أحمر، وشعره أشقر، وهجاه الشاعر أبو العتاهية فقال: هذا الأشقر الأحمر كيف يكون عربياً "ولونه من بني قيصر"!؟ وشبه وجهه بالرئة الحمراء.. وشبه رأسه بالطائر الأصفر.

لماذا غضب الرشيد على أبي نواس؟ كيف دخل السجن، وكيف كانت حياته في السجن؟ ما حقيقة علاقته بالخليفة الأمين؟ هل كان بينهما حب وغزل. أو كانت بينهما مودة وصداقة؟ من هي المرأة التي أحبها؟ وهل هي امرأة واحدة؟ أم هن أكثر من امرأة؟ ما سر تعلقه بالخمر؟ هل كان يرتاد المواخير والحانات في الأديرة، والقرى، وضواحي بغداد طلباً للخمر وحدها، أم كان يطلب الخمر وأشياء أخرى غير الخمر؟! من هم أصدقاؤه "عصبة المجان" وكيف كانت حياته معهم؟

هل كانت لأبي نواس عقيدة دينية، هل كانت له فكرة سياسية؟ هل كان له مذهب فني، أو مذهب في الفلسفة؟

إن الذين كتبوا عن أبي نواس لم يقولوا الحقيقة كلها... لم يقولوها جهلاً، أو غيره، أو حياء..

أبو نواس وحده هو الذي يستطيع أن يقول الحقيقة، ويعترف بها دون جهل أو غيره، أو حياء!!

في سوق العطارين:

وقابلت أبا نواس... قابلته من خلال شعره. وما كتبه عنه أكثر من ثلاثين كاتباً في مواضع متفرقة من كتبهم. وفي دراسات خاصة عنه. التقيت به في ثنايا التاريخ، إن بيني وبينه اثنى عشر قرناً، طويتها القهقرى، ورأيته وجهاً لوجه في القرن الثاني الهجري، في البصرة... في سوق العطارين... في دكان عطار.

السوق مزدحمة بالدكاكين، وقد جلس في عتبة كل دكان صاحبها، ووقف إلى جانبه صبيه، وعتبات الدكاكين مفروشة بالسجاجيد العجمية، وأصحاب الدكاكين يرتدون ملابس زاهية الألوان.. وقد وضعوا على رءوسهم عمائم مدببة. وورواد السوق من جميع الأجناس والأديان. بينهم العربي والفارسي والمسلم والمسيحي واليهودي والمجوسي. وقد ضاقت مسالك السوق. وكثرت التواءاتها، وتعددت دروبها ومداخلها. وعلى أبواب الدكاكين تبرز مختلف البضاعات وقد عرفت من بينها الصندل، وأعواد البخور، والزيتون، والكمون، والشيح واللبان، وأواني من الخزف والفخار. الحركة في السوق دائبة. والزحام شديد.

وذهبت إلى الدكان الذي اختاره أبو نواس للجلوس فيه.. كان صاحب الدكان شيخاً في السبعين من عمره. وعندما وصلت إلى دكانه كان ينهض من فوق السجادة بمساعدة صبية في طريقه إلى

بيته ليتناول طعام الغداء، وألقيت عليه تحية الإسلام وقلت للرجل: أين أبو نواس؟

فقال: أبو نواس هناك في الطرف الآخر من الدكان..

كان جالساً فوق سجادة، وقد اتكأ إلى أريكة، وأسند ظهره إلى أريكة، وثنى إحدى رجليه، ومد رجله الأخرى.. كان ناحلاً أشيب الشعر. وكانت لحيته خفيفة.. وجهه شاحب وعيناه صغيرتان براقتان. سوادهما ناصع، وبياضهما تشوبه صفرة.

وقلت له: لم أتصور أنك أبو نواس...

فقال: أنا هو!

قلت: إن أوصافه لا تدل عليك.

فقال: من أين أنت؟

قلت: من القرن العشرين!

فقال: هل وصلتم إلى القرن العشرين؟!. لقد ظننا أنكم لا تزالون في القرن الرابع عشر!

قلت: لك حق.. نحن بالتاريخ الهجري في القرن الرابع عشر.. وبالتاريخ الميلادي في القرن العشرين.

فقال: يحسن أن نتفق على تاريخ.

قلت: لنتفق على التاريخ الهجري حتى لا نخطئ... أنا من القرن الرابع عشر...

فقال: من أي بلد؟

قلت: من مصر!

فقال: أعرفها... فقد زرتها وقابلت فيها الخصيب، ما أجمل منية الخصيب! ما اسمها الآن؟

قلت: اسمها المنيا فقط!

فقال: لقد مدحت ابن الخصيب بقصيدتي التي أقول فيها:

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره!

وغضب شعراء مصر، وهاجموني، وقالوا كيف يقتحم علينا بلادنا شاعر غريب عنا. ويستأثر بهبة الأمير؟ ولكني عرفت كيف أهدئهم، فقد اشترطت على الأمير قبل أن أنشد قصيدتي أن يجيز شعراءه فأمر لكل واحد منهم بجائزة عظيمة!

الشباب.. والزمان:

قلت: ولكني ما زلت أشك في أنك أبو نواس! فإن الأوصاف التي نعرفها عنه، لا تنطبق عليك.

قال: وماذا تعرف عن أوصاف أبي نواس؟

قلت: إني أراك شيخاً وقوراً، جلله الشيب، والاتزان والهدوء، وأبو نواس الذي نعرفه، كما وصفه ابن منظور "حسن الوجه رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم، وكان شعره منسدلاً على وجهه وقفاه، ألثغ يجعل الراء غيناً، نحيف، في حلقه بحة لا تفارقه"!

وما أراه الآن شيء آخر!!

وضحك أبو نواس وقال: إنك تتكلم عن أبي نواس في صباه. هكذا كنت ولكن الزمن غيرني. ألم تعرف قولي:

لقـد طالمـا كنـا ملاحـاً وربمـا　　صددنا، وتهنا، ثم غيرنا الدهر!

قلت: لقد جئتك من وراء القرون لأراك. وأحقق أشياء حامت حولك ولصقت بك... وربما كنت بريئاً منها، وليس في مقدور أحد سواك أن يؤكد براءتك...

فقال: ومن أخبرك أني حريص على أن أكون بريئاً؟ أنا لا أريد أن أكون بريئاً، ولا مذنباً.. ولكني أريد أن أكون كما أنا!!

قلت: ومن أنت؟

فأعاد السؤال لي قال: ومن أنت؟

قلت: أنا قارئ لأشعارك وأطمع في أن أعرف حياتك، وفنك وعقيدتك وسلوكك الشخصي..

فقال: هل هذا أمر مألوف عندكم؟

قلت: هو أمر مألوف جداً.. فلست أبغي منك أكثر من حديث.

فقال: إن الحديث لا يقوله إلا نبي!

قلت: نعم.. الحديث الشريف لا يقوله إلا نبي!

فقال: وهل تريد حديثاً غير شريف!

من هم الصحفيون؟

قلت: لا أعني ذلك! ولكني أردت أن أظفر منك بحديث صحفي.. أو تحقيق صحفي.. وهذا ما يجرى عليه العرف دائماً في أيامنا!

فقال: إن أيامكم تختلف عن أيامنا يا بني.. لقد كنا نهجو الرواة فنقول إنهم "صحفيون".. ينقلون رواياتهم من الصحف.. أي الكتب المصحفة، المحرفة ولا يسندونها إلى مصادرها، وقد طلب مني أستاذي "خلف الأحمر" أن أرثيه قبل أن يموت فقلت مادحاً له:

فكل ما نشاء منه نغترف   رواية لا تجتني من الصحف!

ويظهر أن ما كان عندنا عيباً أصبح عندكم مزية!

قلت: إن الصحافة في هذه الأيام شيء آخر غير الصحف التي حدثتني عنها.

وحاولت أن أشرح له مهمة الصحافة ولكنه أفهمني أن حالته الذهنية لا تسمح بالخوض في أمور لا يعرفها.

وقال: لقد فهمت أن الحديث الذي تريده هو سؤال تسأله وجواب مني.. إن كان كذلك فاسأل عما تشاء.

أبو نواس يروي قصة حياته:

– متى ولدت؟

– في سنة ١٤٠.

– من هو أبوك؟

– هانئ.. عربي شجاع.. كان جندياً في جيش مروان، وذهب إلى الأهواز.. وهي تقع بين البصرة وفارس.. وهناك عرف أمي فتزوجها. وأمي اسمها "جلبان" من أصل فارسي. ولما انهزم جيش مروان وقامت دول العباسيين ترك أبي خدمة الجيش. واشتغل بحياكة الملابس. وكان يرعى الغنم. ثم مات. فتزوجت أمي شخصاً يدعى العباس. وانتقلنا إلى البصرة. وقد أحببت البصرة واتخذتها وطناً لي.

– ما اسمك؟

– الحسن بن هانئ.

– ما كنيتك؟

– أبو علي.

– ولماذا سميت أبا نُواس؟

– كان أستاذي خلف الأحمر عالماً بالأنساب وقد هداه البحث إلى أني من اليمن. أنحدر من صلب أمير من أمرائها، وكان لكل أمير كنية. فهذا ذو المنة. وهذا ذو الحكمة. وهذا ذو نواس. وأعجبني ذو نواس فاخترته. ولكن الناس أرادوا أن تكون كنيتي أبا نواس، وليس ذا نواس وقد كان لهم ما أرادوا.

أستاذه الذي أفسده:

– من الذي علمك الشعر؟

– والبة بن الحباب؟

– لقد قيل إنه علمك الفسق.

– والشعر أيضاً؟

– هل كان والبة فاسقاً حقاً؟

– وكان شاعراً حقاً!

– هل صحيح بعض ما يقال؟

– كل ما يقال!

– وكيف كان ذلك؟

– كنت أشتغل صبياً في دكان عطار.. هذا العطار.. الحسن بن سليمان. وكنت جميل الصورة، حلواً، جذاباً. وكانت أمي قد جعلت

من بيتها مباءة للعشاق والفساق. فهجرت البيت وأقمت مع الحسن في بيته. فعاملني معاملة الوالد لابنه. وكان حنوناً رحيماً. كان حبه لي حباً عفيفاً، وفي يوم من الأيام جاءه رسول من "أبي بجير الأسدي" حاكم الأهواز، ودعاه إلى العمل في داره فأخذني معه. وهناك التقينا بوالبة بن الخباب. وهو ابن عم الحاكم. وكان قد جاء من الكوفة ليزوره ويطلب رفده. فلما رآني أحبني. وأدناني منه. وقد كنت أميل إلى الشعر. وأسمع اسم والبة يتردد على الأفواه، وأحفظ كثيراً من شعره، ولم أكن أعرف شخصه. فلما عرفته أقبلت عليه بكل جوارحي، وقد اتفق معي على أن أصحبه إلى الكوفة في غفلة من الحسن العطار.

– كيف أغراك بالذهاب إلى الكوفة؟

– قال "إني أرى في مخايل فلاح.. وأرى لك ألا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبني".

وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف من هو فسألته من أنت؟

فقال: والبة! فصرخت من الفرح وقلت له: "أنا والله –جعلت فداك– في طلبك، وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك" فسره ذلك وسألني: لماذا تطلبني؟ فقلت: شهوة للقائك، ولأبيات سمعتها لك فقال: وما هي هذه الأبيات؟

فأنشدتها وهي التي يقول فيها:

ولهـــا –ولا ذنـــب لهـــا– حــــب كـــأطراف الرمـــاح
جرحـــت فـــؤادك بـــالهوى فالقلـــب مجـــروح النـــواحي!

– هل كان والبة يحب جمالك. أو كان يحب شعرك؟

– جمالي وشعري!.. ألا تعرف قصته مع شعري؟

– أريد أن أعرفها.

– كنا في الكوفة في منزل محمد بن سيار بن يعقوب. وكان عنده قيام يغنين. ومجلس شراب. استمر حتى الصباح. وأعجبتني إحدى العازفات، فقلت فيها هذه الأبيات:

حامـــل الهـــوى تعـــب يســـتخفه الطـــرب
إن بكـــى يحـــق لـــه لـــيس مـــا بـــه لعـــب
تضـــحكين لاهيـــة والمحـــب ينتحـــب
تعجبـــين مـــن ســـقمي صـــحتي هـــي العجـــب

وفي اليوم التالي اجتمع عند والبة جمع كبير من الشعراء فقال لهم: "كنت نائماً أمس، وأبو نواس إلى جانبي إذ أتاني آت في منامي وقال: أتدري من هذا النائم إلى جانبك؟ قلت: لا. فقال: هذا أشعر منك. وأشعر من الجن والإنس. أما والله لأفتنن بشعره المشرق والمغرب. فعلمت أنه إبليس.. فقلت له: فما عندك؟ قال عصيت ربي في سجدة فأهلكني. ولو أمرني أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت!"

قلت: هذه قصة والبة مع شعرك.. فما هي قصة غرامه معك؟

قال: دع هذا الآن...

– هل أحرجتك بهذا السؤال؟

– لا شيء يحرجني.

– ربما يضايقك أن تتكلم في هذا الموضوع بصراحة؟

فابتسم وقال: كيف وأنا القائل:

أطيب اللذات ما كان جهارا.

– ولماذا إذن لا تريد أن تتكلم عن غرام والبة بك؟

– لقد تعبت اليوم من الكلام.. فأمهلني إلى غد.

– ستتكلم غداً عن والبة؟!

– نعم.. عن غرامه بي.. عن شعره وزندقته وأستاذيته لي في الشعر والزندقة!

أبو نواس لا تنقصه الصراحة!!

لماذا هدده أستاذه بالذبح.. وشهر عليه السكين؟!
لياليهما في مجالس الشعر والغناء، وبيوت اللهو والمواخير!!

أريد أن أنسى:

.. هل تذكر وعدك لي بأن تحدثني عن والبة.. أستاذك الذي أفسدك وعلمك الشعر والكفر والمجون؟

فقال أبو نواس: أريد أن أنسى هذا الوعد!

– لماذا تريد أن تنساه؟

– بعد ما تركتني أمس، فكرت طويلاً وهداني تفكيري إلى أنه ليس من الصواب أن أفضح سري، وسر رجل آخر كل ذنبه أنه أحبني..

– ولكن هذا السر مفضوح فعلاً.. وقد ظل حديث الناس على مدى القرون!

– ما دام الناس قد عرفوه فلا حاجة بهم إلى أن يعرفوه مرة أخرى!

– ولكنهم لم يعرفوه على حقيقته.. فقد سلط الرواة خيالهم على كل ما يتعلق بك فضاعت الحقيقة.

- من الخير لي أن تضيع هذه الحقيقة!

- ولكن البحث عن الحقيقة واجب..

- إنه واجب بالنسبة إلى الفلاسفة.. ولست فيلسوفاً!

- ولكنك شاعر وفيلسوف..

- أنا شاعر فقط.. ولم أبحث عن الحقيقة في شيء. ولم أجدها في شيء!!

- وإذا وجدتها ألا تعترف بها؟

- وإذا وجدتها أهرب منها.. فلا شيء يفسد الخيال مثل الحقيقة!! وأنا حريص على أن يظل خيالي صحيحاً!

- لقد وعدتني.. ووعد الحرب دين عليه!

- كيف يكون حراً من يمزق شرفه بحد لسانه؟

- يكون حر الفكر..

- هل هذا أمر مستساغ عندكم؟

- ليس مستساغاً.. ولكنه موجود!

- هل يوجد من اعترف بفضائحه؟

- كثيرون اعترفوا.. بعضهم قال كل الحقيقة.. وبعضهم قال نصف

الحقيقة.. وبعضهم قال غير الحقيقة! وقد صاروا مثلك.. حديث الناس!

– هل تذكر منهم أحداً؟

– أذكر القديس أوجستين.. وجان جاك روسو.. وأوسكار وايلد.. وأندريه جيد..

– هذه أسماء غريبة!! من أية قبيلة هي؟ وهل أصبحت الأسماء هكذا في زمانكم؟!

– هذه ليست أسماء عربية.

– أسماء أعاجم إذن؟!

– هذه أسماء أدباء أوربيين!

– ماذا تقول؟!

– العالم الآن ليس قبائل.. ولكنه قارات... وكل قارة تنقسم إلى دول.. وهؤلاء الأدباء من القارة الأوربية..

– دعنا من هذه التفصيلات وقل لي بماذا اعترف هؤلاء؟

– لقد اعترفوا بما حدث لهم في صباهم.. تكلموا عما وقع عليهم من اعتداءات.. تحدثوا عن شذوذهم الجنسي!

– لقد فهمت أن بينهم قديساً.. فهل اعترف القديس أيضاً بما جرى له بالتمام والكمال؟!

– بالتمام والكمال!

– وماذا قال الناس عنهم؟

– استنكروا نقائصهم.. وأشادوا بمزاياهم..

مع والبة:

– وماذا تريد مني الآن؟

– أريد أن تحدثني عن حياتك مع والبة في الكوفة.. حياة الليل وحياة النهار.. حياة الجد وحياة العبث.. حياة الصحو وحياة السكر والعربدة..

وهنا قاطعني أبو نواس قائلاً:

– كفى.. كفى!! لقد صدعت رأسي بهذه الألفاظ الغريبة على أذني.. قارة أوربية!! جان جاك روسو!! أوجستين!! ويظهر أنه لا أمل في الخلاص منك إلا بالاعتراف لك.. اسمع، ولا تقاطعني:

– كنت وأنا في البصرة أسمع عن والبة بن الحباب فقد كان الناس يتحدثون عن شعره ومجونه، وكنت طفلاً عندما قدم البصرة مع الحاكم الجديد محمد بن أبي العباس.

– في أي سنة كان هذا؟

– في سنة ١٤٧.

– لقد كان حاكم البصرة إذ ذاك محمد العلوي فيما أظن؟

– بعدما قتل محمد العلوي تولى الحكم بعده محمد ابن أبي العباس بأمر من الخليفة أبي جعفر المنصور..

– الذي أعرفه أن السفاح هو الذي تولى الحكم بعد محمد العلوي..

– لقد كان محمد بن أبي العباس سفاحاً حقاً، فهل جعل التاريخ صفته اسماً له، وعلماً عليه فأصبحتم لا تعرفونه إلا باسم السفاح..؟

في قصر السفاح:

واستطرد أبو نواس يقول:

– جاء الحاكم الجديد أو الأمير الجديد، ومعه جماعة من الشعراء بينهم حماد عجرد، ووالبة بن الحباب، وكان الناس يتحدثون عن نزوات الأمير، وإفراطه في الشراب ومجالسه التي تغني فيها القيان، وترقص الجواري، وينشد الشعراء ما ينظمونه في مدح الأمير، ووصف الخمر، والتشبيب بالغانيات، وكنا نسمع عما يجرى في هذه المجالس من زندقة ومجون وفسق. وكيف أن الأمير كان يعطي الشعراء والمغنين والراقصات بلا وعي ولا حساب.. وكان يحب زينب بنت سليمان. وكان يريد أن يعبر عن حبه لها بالشعر. ولكنه

ليس بشاعر. فكان يعقد مجلس الأنس والشراب كل ليلة. وأمامه زينب وحولها الجواري يرقصن، والقيان يغنين، والشعراء يجهدون قرائحهم للتعبير عن عواطف الأمير.. فإذا نظم أحدهم أبياتاً أعطاها لمغني الأمير.

– من هو مغني الأمير؟

– اسمه "حكم" أليس معروفاً في أيامكم؟

– معروف في الكتب!

– ألم أقل لك لا تقاطعني حتى أستطيع مواصلة الحديث؟

– أنا لا أقاطع ولكني أستوضح.

– لقد نسيت ما كنا نتحدث فيه..

– كنت تتحدث عن مجلس السفاح وحبه لزينب.. وغناء حكم!

– نعم.. كان حكم يغني للأمير ما ينظمه حماد أو ولابة وبعدما تدور الكؤوس وتدور الرءوس.. يقف الأمير –وكان طويلاً عريضاً قوي البناء– فيهتز ذات اليمين وذات الشمال، ويضرب الأرض برجليه.. ويصيح في حكم.. غنني. فإن أطربتني أعطيتك كل الهدايا التي تلقيتها اليوم.

وكان دائماً يغرق حكماً، وحماداً، ووالبة بالهدايا والعطايا. ونسمع نحن عن هذه المجالس كما لو كانت أسطورة أو خيالاً! في هذه الأيام عشقت والبة بالسماع. وتمنيت لو رأيته بعيني. ولكن والبة لم يمكث في البصرة طويلاً. وعاد إلى الكون دون أن أراه.

– هل أستطيع أن أسألك كيف استهل السفاح حكمه بهذه الخلاعة وقد جاء عقب مقتل العلوي؟ وكيف سكت الخليفة أبو جعفر على ذلك، والمفروض أنه عينه على البصرة ليمثل هيبة الخلافة ووقارها؟!

– إن محمد بن أبي العباس أو السفاح كما سماه التاريخ. كان في مجالس لهوه حمامة وديعة، وكان في مقعد حكمه أسداً ضارياً!

– ولكن سوء السمعة يقلم أظفار الأسد!

– إن السفاح ابن أخي الخليفة المنصور وقد أغضى عن مباذله ليتمادى فيها، ويجعل الناس يقارنون بينه وبين المهدي ابن الخليفة، فيرتفع المهدي في أعينهم..

ونظر إلى أبو نواس في غضب وقال:

– ولكن ما علاقة هذا بالكلام عن والبة؟

لا تعترضني بمثل هذه الأسئلة العجيبة!! واعلم أن ذاكرتي ليست كتاباً حتى تعي كل ما حدث في عصري.

– فلنعد إلى والبة.

– لقد عرفت كيف التقيت به في الأهواز، وأخذني إلى الكوفة، وقد وجدتها بلدة جميلة. جوها أرق من جو البصرة، وإن كانت تقل عنها في فخامة الأبنية.

– أين أقمت في الكوفة؟

– أقمت مع والبة في بيت واحد. وكان بيته مؤلفاً من ثلاث غرف. خصص لي إحداها. وكانت تخدمه سيدة عجوز تمت إليه بصلة القرابة. وكان يعاملني كما لو كنت أخاه. وقد دامت صلة الأخوة سبعة أيام فقط!

– ثم ماذا حدث؟

– حدث ما قاله الناس عنا.

– وكيف حدث ذلك؟

– كان والبة حريصاً على ألا يعرف أصدقاؤه شيئاً عن علاقتي به. وقد بقيت ثلاثة أيام لا أظهر معه. وكان أهل الكوفة يتساءلون كلما رأوني: من هذا الشاب الغريب؟

وكثيراً ما سئلت: من أي بلد أنا. ولماذا أنا هنا. فكنت أزعم أني ابن أحد تجار البصرة. وجئت الكوفة لشئون تتعلق بتجارة والدي.

وفي أحد الأيام طرق بابنا الشاعر حماد عجرد وبصحبته مطيع بن إياس ويحيى بن زياد الحارثي. وفتحت لهم الباب فلما رأوني استغرقوا في الضحك.. ونادوا بأعلى أصواتهم: اخرج لنا يا أبا أسامة..!

– ومن أبو أسامة هذا؟

– إنه والبة.. هذه كنيته. ألا تعرفون أن للرجل اسماً وكنية؟

– نعرف.. وعندنا من يقول عن حسن.. أبو علي.. وعن إبراهيم.. أبو خليل!

– ألم أقل لك لا تقاطعني؟

واستمر في حديثه يقول:

– .. وخرج والبة إلى ضيوفه فلما رآهم تبادل معهم الضحك.. وفهمت من حديثهم أن والبة أفهمهم ليلة أمس أنه سيعتكف في البيت اليوم لشعوره بدوار في رأسه.. فلما جاءوا ليعودوه أدركوا أنه تخلص منهم ليكون لي وحدي، وأكون له وحده!

وقد قال حماد: لقد عرفنا الآن أنه ليس عندك دوار.. ولكن عندك هذا.. ومد سبابته نحوي! وقد غضبت من هذه المداعبة، وتركتهم ولزمت غرفتي فجاءوني ومعهم والبة وقالوا إن غضبي عزيز عليهم، ولم يزالوا بي حتى رضيت نفسي، وزال غضبي.

وفي اليوم التالي سهروا في بيت والبة، وقد أحضروا قنينات الخمر، والنبيذ ومختلف الأطعمة وبعض المغنين والجواري والغلمان، وأخذوا يشربون، ويرقصون، ويغنون حتى الصباح. ولم أشترك معهم في الشراب. وكانوا يرمقونني بنظرات غريبة.. لم أفهمها!

– لم تفهمها؟!

– أفهمها الآن.. لكني إذ ذاك لم أكن أفهمها!

ومضى يقول: بعد يومين ذهبت مع والبة إلى منزل محمد ابن سيار بن يعقوب. وقد أعد مجلساً اشترك فيه القيان، والجواري، والمغنون وأصحاب والبة من الشعراء والزنادقة. وكان بين الحاضرين ابن صاحب المنزل، فاسترعاني جماله. ونظمت فيه أبياتاً أنشدتها في الحال. أذكر منها:

خلقت في الحسن فردا فما لحسنك ثاني
كأنما أنت شيء حوى جميع المعاني

وأخذ الجميع ينشدون هذه الأشعار، ويغنونها وكان صاحب البيت وابنه مبتهجين بأشعاري، وبعد هذه الليلة ذاع اسمي في الكوفة.

وقد خرجت وحدي في الطريق. واختلطت بالناس فلاحظت أنهم يتهامسون ويتغامزون. وسألني أحدهم: كيف حال الحبيب؟ وسألته: من هو الحبيب فقال: أبو أسامة.. فهممت بلطمه على

وجهه، وحال الناس بيني وبينه. وقال لي شيخ كبير وقور.. يا بني من وضع نفسه موضع الشبهة فلا يلومن إلا نفسه.. ووالبة شيخ الزنادقة والفساق وقد عشت معه في بيت واحد فاعذر الناس إذا ظنوا بك الظنون!

وحتى هذه اللحظة لم يكن بيني وبين والبة ما يجرح العفة..

وطلب مني أن أصحبه في رحلة صغيرة تستغرق يومين.. فذهبنا إلى بلدة "طيرناباذ" وهي تقع بين الكوفة والقادسية ودخلنا بيتاً يدار للشراب صاحبته رومية، عجوز، شمطاء، وقد رحبت بنا. ومدت لنا بساطاً حوى الشراب والطعام وخصتنا بمكان بعيد عن بقية النزلاء.. وكان يقوم على خدمتنا فتاة صغيرة تلبس ملابس الغلمان، وقد أخفت شعرها تحت قلنسوة من القطيفة، فبدت كما لو كانت غلاماً حقاً. حاول أن أداعبها فنهاني والبة وقال: وماذا أصنع أنا هنا إذن؟

– فقلت: هل تريدها؟

– فقال: بل أريدك أنت!

ولما لاحظ دهشتي وخوفي قال لي إنني أمزح معك.. لا تخف! افعل بالفتاة ما شئت. ولكنك لن تستطيع شيئاً إلا إذا شربت كما أشرب، وكان قد شرب كوزين وشربت كوزاً واحداً؟

– هل كنتم تشربون بالكوز؟

- نعم.. وهو يسع رطلاً.

وكان والبة قد اتفق مع الفتاة على أن تضاعف لي كمية الخمر فكانت تغافلني وتملأ كوزي كلما نقص. وقبل أن تلعب الخمر برأسي لعبت الخمر برأس والبة فقال:

- لا تضيع وقتنا..

فنهرته بشدة.. فما كان منه إلا أن استل سكيناً من بين ثيابه وقال لي: إما هذا وإما هذا..

فقلت له: اذبحني!

فقام من مكانه. وقبلني في جبيني وبكى. وحاول أن يسترضيني.

قلت له: الناس إذن معذورون فيما يقولونه عنا. فسألني: وماذا يقولون؟.. فرويت له ما يهمسون به. وما حدث لي مع الشيخ الوقور الذي حذرني من صحبة والبة.. فقال مساكين سيذهبون إلى النار بآثامهم. هل حدث بيننا شيء مما همسوا به؟ ولما قلت له لم يحدث شيء بعد. قال: مساكين.. سيذهبون إلى النار لأنهم كذبوا... لماذا لا ندخلهم الجنة بأن نجعل كذبهم صدقاً؟

ثم أنشد هذين البيتين:

قـــم بنــــا يــــا نــــور عينــــي   نجعــــــل الشــــــك يقينـــــــا

فـــإلى كـــم يـــا حبيبـــي   يـــأثم القائـــل فينـــا..

وأطرق أبو نواس، وأغمض عينه كمن يتذكر شيئاً أو يبدي ندماً وقال:

– منذ هذه الليلة.. أصبح الشك يقينا!

وذهبنا إلى الكوفة وقد أضمرت في نفسي أمراً..

– وماذا أضمرت؟

– ألا ترحم شيخوختي؟ اتركني اليوم.. وغداً أقول لك كل شيء!

"أبو نواس" يهرب من أستاذه!!

عصر الزندقة والمجون..

الشعر الأدباء والخليفة:

قلت لأبي نواس: أتذكر كيف انتهى حديثنا أمس؟

– ذكرني!

– لقد حدثتني عن اعتداء والبة عليك في حانة "طيرناباذ" وكيف هددك بالسكين فقاومته، وأغراك بالشعر فلم تستطع أن تقاومه.. وكان ما كان وأصبح الشك يقيناً!

وأطرق أبو نواس برأسه إلى الأرض وأغمض جفنيه وأخذ يقول:

– عدنا إلى الكوفة، وقد أضمرت في نفسي أن أهرب من والبة، وأعود أدراجي إلى البصرة. فقد تحول إعجابي بوالبة إلى شعور بالمقت، والخزي، والانكسار. فكيف أعيش معه في الكوفة؟ كيف أظهر بين الناس؟ ماذا أقول لهم إذا غمزوني في شرفي وعفتي؟ لقد كان يخجلني كذبهم فكيف أواجه صدقهم؟

لم أكد استأنف حياتي في الكوفة حتى هدأت نفسي، فلم يقع شيء مما خفت أن يقع. لا غمز، ولا لمز، ولا أحد تحرش بي. وقد

تعود أهل الكوفة أن يروني بينهم فكفوا عن مطاردتهم لي بالظن السيئ أو الظن الحسن.. لقد تركوني وشأني. ولا أخفي عنك أني دهشت من ذلك.. وكثيراً ما كنت أسائل نفسي.. ما بال الألسنة التي تصايحت بتجريحي عندما كنت إنساناً بريئاً مظلوماً قد أصابها الخرس بعد ما لم أعد ذلك الإنسان البريء المظلوم.

– لعل أهل الكوفة لم يعرفوا شيئاً مما حدث بينك وبين والبة في طيرناباذ؟

– عرفوا كل شيء!

– لماذا سكتوا عنك إذن؟

– لأني أصبحت مثلهم.

– ماذا تقول..؟ أهل الكوفة مثلك؟!

– عصري كله مثلي!

– كيف تقول ذلك. وفي عصرك عاش أقطاب العلم والدين؟

وهنا قاطعني أبو نواس قائلاً:

– لست أعني بأهل عصري أتقياءه ودهماءه، ولكني أعني شعراءه وأهل الفكر فيه.. لقد كانوا جميعاً مثلي فسوقاً، وزندقة، وإغراقاً في اللهو والمجون.. أأنا وحدي الذي وصلت إليكن فضائحه؟ يا لظلم التاريخ!

– إننا نعلم أن عصرك كان حافلاً بالكفر والفسوق.. كفر العقول وفسوق الآراء والأفكار... أما كفرك وفسوقك فلم يقفا عند حد العقل والفكر بل تجاوزوا هذا الحد إلى أشياء يحمر لها الجبين! ومن أجل هذا خصك التاريخ بعنايته!

– بل خصني بلعنته... ولو كان التاريخ عادلاً لوزع لعنته على شعراء عصري جميعاً!

عشرون شاعراً في بيت فجوز!

فقد كانوا كلهم فساقاً فجاراً. وقد عرفتهم واحداً، واحداً، وشاركتهم في إثمهم وفجورهم وصراحتهم وريائهم... كنا نقضي الليل في الحانات وبيوت اللهو. نشرب الخمر. وتشربنا الخمر... نغتصب اللذة ونعطيها... وقد اجتمع في ليلة واحدة عشرة شاعراً وعالماً، ولغوياً، ورواية، فأخذنا نغني، ونرقص، ونجمش الجواري والغلمان، والقيان. ولقد ظللنا في غيبوبة.. حتى اليوم التالي.

– أين كنتم؟

– في البصرة.

– في أية حانة؟

– في بيت عبد الله بن رامين.

– هل هو أمير؟

- أمير اللذات!

- ماذا تعني؟

- ألا تعرف بيت عبد الله بن رامين؟

- لا أعرفه.

- لعلك لا تعرف أيضاً بيت الشيخ زريق؟

- ما هذا؟ ابن رامين.. والشيخ زريق؟!

- إن ابن رامين والشيخ زريق كانا يتنافسان على تهيئة أسباب اللذة لأشراف الكوفة وكان لكل منهما بيت يجمع الجواري والغانيات والحاذقين في الغناء والشعر والحسن والجمال.. وكان ابن رامين يمتاز بجواريه الحسان من أمثال سلامة الزرقاء. وربيحة، وسعدة!

- هل كان ابن رامين والشيخ زريق من هواة اللذة؟

- كانا يحترفان اللذة!

- وكان لهما أجر على ذلك؟

- أجر فاحش!

الجمال لا يتغير:

- كيف كان جمال النساء في أيامكم؟

– الجمال لا يتغير؟

– ولكن النظرة إليه قد تتغير!

– ما هو جمال المرأة في أيامكم أنتم؟

– رقة، وجاذبية، وانسجام في القسمات والأعضاء!

– ولقد كان كذلك في أيامنا.

– ألا تزال تذكر أوصاف ربيحة، وسعدة وسلامة الزرقاء؟

– أذكر من ربيحة شعرها المجدول..

– وسعدة؟

– كانت بيضاء ناعمة!

– وسلامة الزرقاء؟

– أذكر ثيابها الزاهية.. ثيابها التي كانت تلتصق بها فتعبر عن مفاتن جسمها وتتفرج عن صدرها فتبوح بأسرار فتنتها... وكان لها فوق شفتها العليا، شعر خفيف أشبه بالشارب!

– وماذا كنتم تصنعون يا معشر الشعراء في هذه الليالي مع هؤلاء الغواني؟

– كنا نشرب وننظم الشعر للأمراء والأشراف. ونأخذ الجوائز والعطايا!

– وكانت الجواري يأخذن جوائز وعطايا مثلكم؟

– كن يأخذن الألوف.

– ألوف الدراهم..

– ألوف الدنانير في الليلة الواحدة.

– هذه مبالغة..

– بل حقيقة... اسمع:

في هذه الليلة التي أمضيناها في بيت ابن رامين كان معنا "معن بن زائدة" و"روح" وكلاهما ثري أمثل فغنت سلامة الزرقاء فبعث إليها معن كيساً مملوءاً بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وبعث إليها روح كيساً آخر مملوءاً بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وكان مع أحد الأشراف لؤلؤتان اشتراهما بأربعين ألف درهم فعرضهما عليها، واشترط لذلك أن تأخذهما بشفتيها من شفتيه!

ولم يكن عند ابن المقفع ذهب فكتب ضكا نزل فيه عن ضيعته وأعطاه لسلامة!

– عبد الله بن المقفع يفعل هذا؟!

– نعم.

– صاحب الأدب الصغير؟!

– والأدب الكبير!

– ناقل كليلة ودمنة عن بيدبا فيلسوف الهند؟!

– هو... هو...

– هل كان ذلك قبل إسلامه.. أو بعد إسلامه؟

ابن المقفع بلا دين:

– لم يكن ابن المقفع مسلماً.

– كان مجوسياً وأسلم؟

– لم يكن يؤمن بشيء.. وقد أراد أن يكون ذا حظوة في الدولة، فذهب إلى الخليفة، وقال له أريد أن أشهر إسلامي. ففرح الخليفة، وقال هذا نصر عظيم للإسلام ودعا الناس إلى قصره في الصباح حتى يشهدوا إسلام ابن المقفع المجوسي.. واستبقى ابن المقفع ليتناول طعام العشاء معه. ولما حضر الطعام لحظ الخليفة أن ابن المقفع يتلو صلاة المجوس قبل أن يمد يده إلى الصحاف. فقال له: ألم تشهر إسلامك؟ فقال ابن المقفع: لقد أمرتني أن أرجئ ذلك إلى الصباح. فقال له الخليفة: ولماذا تصلي الآن صلاة المجوس؟ فقال: لقد كرهت أن أبيت ليلتي من غير دين! والحقيقة أن ابن المقفع عاش عمره كله بلا دين.

وراح أبو نواس فيما يشبه الغيبوبة، ثم رفع رأسه وقال:

– فيم كنا نتحدث؟

– كنت تتحدث عن الشعراء والأدباء. وكيف أنهم كانوا زنادقة مثلك... وقد حدثتني عن ابن المقفع ولم تحدثني عن سواه.

– ألم أحدثك عن والبة؟

– حدثني.

– ألا تعرف أنه كان ارق الشعراء؟

– لا أعرف.

– ألم تعرف رأي عمارة بن حمزة في والبة؟

– من يكون عمارة بن حمزة هذا؟

– حاكم الأهواز في عام ١٥٨.

– وما هو رأيه في والبة؟

– لقد طلب إلى الخليفة المهدي أن يسمح لوالبة بأن يكون من جلسائه؛ فقال له المهدي: ولماذا يكون من جلسائي؟ فقال عمارة: إنه أرق الناس شعراً. فقال الخليفة: أسمعنا شيئاً من شعره. فأسمعه أبياتاً قال فيها والبة إن من عادته أن يدب إلى جلسائه ويثب عليهم إذا غلبهم النوم! فضحك المهدي وقال: "أوتريد أن نكون من جلسائه على هذا الشرط"؟

واستطرد يقول: ألم تسمعوا بداود بن رزين. والحسين الضحاك الأشقر الخليع. والفضل القاشي، والحسين الخياط. وعنان جارية النطاف. وإسماعيل القراطيسي. ورزين الكاتب؟ هؤلاء جميعاً هبطوا في المجون واللهو والزندقة إلى أسفل درك..

مباراة في المجون:

ثم قال:

– أردنا يوماً أن نجتمع في بيت واحد منا لنتقرب من الشيطان... واتفقنا على أن من يجيد توجيه الدعوة شعراً، نجتمع عنده فقلت:

ألا قومـــوا إلـــى الكـــرخ إلـــى منـــزل خمـــار
وبســـتان لـــه نهـــر لـــدى نخـــل وأشـــجار
فـــإن أحببتمـــوا لهـــواً أتينـــاكم بمزمـــار
وإن أحببتمـــوا........ ....

ولعلك تذكر بقية الأبيات!

– أذكر أنك أحلتهم في النهاية على ربة الدار!

ومضى أبو نواس فقال: أما داود فأنشد:

قومـــوا لمنـــزل لهـــو وظـــل بيـــت كنـــين
وقينـــــــــة ذات دل وذات عقـــل رصـــين
تشـــدو بكـــل ظريـــف مـــن محكـــم ابـــن رزيـــن!

- هذا رجل مؤدب!

- لم يعجبني أدبه. فقلت أرد عليه:

قومـــــوا إلــــى ثقـــاتي قومـــوا بنـــا.. وحيـــاتي!
قومـــــوا نلــــذ جميعـــاً بقـــول هـــاك وهـــاتي!
فـــإن أردتـــم فتـــاة أتيــــــتكم بفتــــــاة
وإن أردتـــــــــم ....

ولعلك تعرف الباقي!

- أعرف أنك أحلت الإخوان في النهاية على شخصك الكريم!! أما الحسين بن الضحاك الخليع فقال:

إلـــى الخليـــع فقومـــوا إلـــى شـــراب الخليـــع
إلـــى شـــراب لذيـــذ وأكـــل جـــدي رضـــيع
.... مشـــال كـــل رقيـــع!

- يا للخليع من رقيع!

ومضى أبو نواس يقول:

أما الرقاشي فقال:

لله در عقـــــــــــار حلـــت ببيـــت الرقاشـــي

وقال عمرو الوراق:

عوجـــوا إلـــى بيـــت عمـــرو إلـــى ســـماع وخمـــر

وقال الحسين الخياط:

قضــــت عنــــان علينــــا بــــأن تـــزور حســـينا

وقالت عنان:

مهــــلاً أفـــديك مهــــلا عنــــان أخــــرى وأولــــى
بــــأن ينــــال لـــــديها أشــــهى النعــــيم وأحلــــى
فــــإن عنــــدي حرامــــاً مــــن الشــــراب وحــــلا

وقال علي بن الخليل:

ألا قومــــــوا جماعــــــات أخلائــــــي فجيئــــــوني
إلــــى صــــهباء كالمســــك وأبكــــار مــــن العــــين
وإن أحببتمــــــــــوا ...

– خيبة الله عليه!...

وقال إسماعيل القراطيسي:

ألا قومــــوا جماعــــات إلــــى بيــــت القراطيســــي
فقــــد جــــاء لنــــا عمــــرو بظبــــي أمــــرد طوســــي
وقينــــات مــــن الحــــور كأمثــــال الطــــواويس!

وقال رزين الكاتب:

ألا قومــــوا جماعــــات لعنــــدي لا إلــــى غيــــري
فعنــــدي مــــن إذا غنــــى تهــــم الأرض بالســــير!

ولما ذكر لنا رزين كل ما عنده من أسباب اللذات على اختلافها.. قلنا له: اليوم يومك. فقم بنا، وصرنا إليه جميعاً.

وهنا سألت أبا نواس:

– وبعد أن صرتم إليه ماذا حدث؟

– حدث لهم جميعاً ما رواه التاريخ عني وحدي!

فسأله:

– هل كان هذا المجون والتهتك، والفجور، والابتذال في الكوفة وحدها؟

– كان في كل مكان.. في الكوفة.. في البصرة.. في بغداد.. كان في الحانات.. في الأديرة.. في المساجد.. كان في أكواخ الفقراء.. وقصور الأشراف.. كان في قصر الخليفة..

فقلت له:

– لقد تشعب الحديث بنا.. كنت ستحدثني عن هربك من الكوفة إلى البصرة.. وها نحن أولاء لا نزال في الكوفة.

– لقد تركت الكوفة ونحن الآن في البصرة!

– ولكنك لم تقل لي كيف تركت الكوفة؟

– بعد أن أمضيت ثلاثة أعوام في الكوفة شعرت بأن شخصيتي تلاشت في شخصية والبة. وكرهت أن أظل تبيعاً له، فاعتزمت العودة إلى البصرة لأستأنف فيها حياة جديدة. وخشيت أن أفاتح والبة بما اعتزمته فيحتجزني معه، فاستأذنته في السفر إلى البادية مع وفد من

بني أسد فأذن لي. وقد أقمت في البادية سنة، تعلمت فيها كثيراً من غريب اللغة ثم عدت إلى البصرة.

وهناك عرفت خلفاً الأحمر وكان عالماً عظيماً، وجلست منه مجلس التلميذ من أستاذه.

– هل كان خلف الأحمر مثل والبة؟

– كان شيئاً آخر.

– كيف كان؟

فقال أبو نواس:

– لقد طال الحديث.. أمهلني إلى غد..

كيف.. ومتى.. أصبح شاعراً؟

أبو نواس يتزوج

من هي زوجته.. ولماذا طلقها ليلة الزواج؟

قلت لأبي نواس: لقد سألتك عن أستاذك خلف الأحمر، وهل كان مثل أستاذك الأول والبة بن الحباب؟ وقلت لي إنه كان شيئاً آخر... فكيف كان؟

– ماذا تعني بهذا السؤال؟

– أردت أن أعر مدى زندقة خلف الأحمر، وقدرته على الفسق والمجون...

فقال أبو نواس: هل كان الناس زنادقة وفساق وأهل مجون...؟

– لم أقل ذلك ولكنك أنت الذي قلته... فقد أكدت لي أن أهل عصرك كانوا جميعاً هكذا...

فقال: ألا تعرف أن لكل قاعدة استثناء...؟

– نعم لكل قاعدة استثناء.. وشذوذ!

فقال: لقد كان خلف استثناء من القاعدة، وشذوذاً فيها.. كان في مستهل حياته مولعاً باللهو البريء. وقد ركز لهوه في اللغة،

والشعر. فكان ينسب إلى الشعراء الأقدمين ما لم يقولوه، ويختلق روايات لا أصل لها، وكان بارعاً في محاكاة فحول الشعراء... ثم أقلع عن هذا اللهو، ولما كبر كان مثال الجد والرزانة... وكان ورعاً في أغلب أوقاته...

– كيف عرفته؟

فقال: عندما عدت إلى البصرة، كنت قد عقدت العزم، على أن أبدأ حياتي من جديد. فلا لهو، ولا مجون ولكن توبة عن المعاصي، وتفرغ تام للعلم والجد، وقد أفادتني رحلتي إلى البادية كثيراً وكنت خلال هذه الرحلة مثال الاستقامة، كنت في حالة ندم على ما فرط مني، وفي حالة تصميم على أن أنأى بنفسي عن مظان العبث والشبهات. وأن أعود إلى البصرة رجلاً فوق مستوى الظنون... فلم أكد أضع قدمي فوق أرض البصرة، حتى قصدت إلى أبي الحسن العطار الذي كنت أعمل صبياً في دكانه، وكان مني بمثابة الوالد البار، وكنت ابناً عاقاً... فقد تركته وهربت مع والبة، وكان ما كان. ولقد تلقاني أبو الحسن بالترحيب ولما سألته أن يعفو عني.. قال إن عفوي دائماً يسبق ذنبك! ودعاني إلى استئناف عملي في دكانه فأخبرته بما اعتزمته من مواصلة الدرس، فسره ذلك، وشجعني على أن أخصص كل وقتي للعلم ورأى أن أتتلمذ على خلف الأحمر لغزارة علمه، وتبحره في الشعر واللغة، والإلمام بأنساب العرب.. فأخذت

برأيه، وقصدت إلى خلف الأحمر في مسجد البصرة وقد أبدى إعجابه بذكائي، وسرعة بديهتي، ولم أعرض عليه شيئاً من الشعر الذي نظمته وأنا في صحبة والبة. فقد كان خلف يحب جزالة اللفظ، وكان شعري في ذلك الوقت سهلاً، رقيقاً، وكان كله عبثاً ومجوناً، وبعد أن لازمت خلفاً الأحمر، حوالي العام استأذنته في نظم لشعر فقال لي: لا آذن لك إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة... فغبت عنه فترة طويلة، وجئته لأنشده ما حفظته. فسألني: كم حفظت؟ فقلت: ألف مقطوع. فقال: أنشدها. فأنشدتها في عدة أيام. وسألته أن يأذن لي في نظم الشعر...: فقال: لا آذن لك إلا أن تنسى هذه الأشعار كلها..

فقلت: هذا أمر يكاد يكون مستحيلاً، فقد أتقنت حفظها!! فقال: لا آذن لك حتى تنساها!

فذهبت إلى بعض الأديرة وخلوت بنفسي، بضعة شهور، استغرقت خلالها، في تأملاتي ونسيت كل شيء... نسيت الشكل والصورة، واللفظ. ولم يبق في خاطري إلا الجوهر والمعنى، وجئت إلى خلف الأحمر وأخبرته أني نسيت الألف مقطوع فسألني هل نسيتها كلها؟ فقلت: نسيتها حتى كأني لم أكن أحفظها قط. فقال: الآن.. انظم الشعر!

وقلت لأبي نواس ألا تذكر أول شعر نظمته عقب ذلك؟

فقال: لا أذكر... فقد كان ما نظمته إذ ذاك شعراً سخيفاً، لا دافع له ولا غرض، كان محاكاة للأشعار التي زعمت لخلف الأحمر أني نسيتها!

– كأنك لم تنسها؟!

– الحق أني تناسيتها... وأظنني بعد ذلك قد نسيتها فعلاً!

– في أي وقت كنت تنظم الشعر؟

فقال: لا أكاد أقول شعراً جيداً إلا إذا كانت نفسي راضية.

– هل كنت تختار مكاناً بذاته لنظم الشعر؟

– كنت أوثر النظم في البساتين..

– ليلاً.. أو نهاراً؟

– لا يهمني الليل والنهار، ولكن يهمني أن أكون على حال أرتضيها، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضى عنها!

– كيف كنت تنظم الشعر؟

– كنت أشرع في نظم القصيدة وأتركها أياماً. ثم أراجعها فأمحو كثيراً منها. ولا أبقى إلا على ما يروقني.

– ولكن ما تنظمه هو خواطر نفسك فكيف تمحو هذه الخواطر؟!

– إن الخواطر تخطئ وتصيب وقد كنت أمحو ما أراه خطأ، وأثبت ما أراه صواباً.

– هل كنت سريعاً في النظم؟

– لم أكن سريعاً ولا بطيئاً. كنت بين السرعة والبطء... كنت وسطاً.

– هل كنت تعني بشعرك في الخمر؟

– كل العناية!

– وشعرك في المجون؟

– بعض العناية!

– وشعرك في المدح؟

– كنت أنظمه بلا عناية!

واستطرد أبو نواس يقول:

– لقد سئلت في ذلك مرة فقلت إذا أردت أن أجد قلت مثل قولي:

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

وإذا أردت العبث قلت مثل قولي:

طاب الهوى لعميده...

أما الذي أفنى فيه وحدي وكله جد، فإذا وصفت الخمر!

وقلت لأبي نواس: ولكن قصيدتك التي تقول فيها: لا أذود الطير عن شجر.. هي قصيدة كلها مدح، وكنت قد ذكرت لي أنك تنظم المديح بلا عناية!..

فقال: لقد قصدت المدح الذي لا يتجاوز طرف اللسان إلى القلب أو العقل.. أما أن تمدح رجلاً تحبه، أو تؤمن به فليس هذا مدحاً ولكنه شعر يرقى إلى شعر الخمريات والمجون والحب والزندقة!

– وهل كنت تحب الخصيب حاكم مصر إلى درجة أن تقول فيه مثل هذا الشعر؟

فقال:

– لم أقل هذا الشعر في الخصيب، ولكن قلته في العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور، ولقد أحببت العباس حقاً.

– هل حفظت أشعاراً أخرى غير ما أوصاك خلف الأحمر أن تحفظه؟

فقال: حفظت سبعمائة أرجوزة من أراجيز الشعراء. وما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب، بينهن الخنساء وليلى الأخيلية، وليلى العامرية.. فما ظنك بالرجال؟!

- كيف كان رأي معاصريك في شعرك؟

فقال: كان بعضهم يحسدني على مكانتي وذيوع اسمي، وإقبال جمهرة الناس على ترديد شعري، وكان بعضهم الآخر يراني أشعر الشعراء على الإطلاق.. وغيرهم اعترفوا بسمو مكانتي في الشعر ولكنهم جبنوا على الرواية عني!

- هل تذكر أحداً من حاسديك؟

فقال: ولا أحد يذكرهم!!

- والمعجبون بك هل تذكرهم؟

فقال: ألم يرو التاريخ أسماءهم؟

فقلت: روى التاريخ أن ابن عائشة سئل عن أشعر المحدثين فقال الذي يقول:

كـــأن ثيابـــه أطلعـــن مــــــن أزراره قمـــــــراً
يزيـــدك وجهـــه حســـناً إذا مـــا زدتـــه نظـــراً

وأنت صاحب هذه الأبيات، فأنت أشعر المحدثين في رأي ابن عائشة.

فقال أبو نواس: وكان الأصمعي يعجب بشعري ويسميني الشاطر. وهل سمعتم عن شاعر اسمه كلثوم بن عمرو؟

قلت: أنا شخصياً لم أسمع عنه.

فقال: كان يلقب بالعتابي!

فقلت: سمعت عنه... كان شاعراً متحيزاً للبرامكة. أليس كذلك؟

فقال: كان كذلك في أول الأمر ثم ساءت الحال بينه وبين البرامكة.

– لماذا سألتني عن العتابي هذا؟

فقال: كان شاعراً مطبوعاً رقيقاً وكان يسميني الخبيث. ويقول: لو أدرك الخبيث الجاهلية لما تفوق عليه أحد!

قلت: إن التاريخ حدثنا عن إعجاب أبي عبيدة بشعرك. كما حدثنا أن أبا عمر الشيباني العالم النحوي كان يقول: أشعر الناس في وصف الخمر ثلاثة: الأعشى، والأخطل، وأبو نواس.

وضحك أبو نواس وقال:

– أعرف أبا عمر الشيباني هذا وكنت لا أستحسن آراءه... فقد كان يعجب بالشكل. وأنا لا أحب الشكل إلا في الوجه والبدن... أما الأدب فإني يعجبني فيه الشكل والجوهر معاً!

– ولكنه لم يخطئ في حقك.

فقال: بل أخطأ إذا جعلني في الخمريات واحداً من ثلاثة!

- ما مكانك في شعر الخمريات إذن؟

فقال: واحد فقط... وقد سبق أن سألني سليمان ابن أبي سهل: ما الذي أستجيده من شعري؟ فقلت له أشعاري في الخمر لم يقل أحد مثلها.. وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس. وهما أجود شعري!

واستطرد أبو نواس يقول:

- ألا تعرف الثوري؟

ولما بدا له أني لا أعرفه مضى فقال: كان من الأئمة الأعلام في الحديث وأراد بعض الحاقدين أن ينالوا مني في مجلسه فقال الثوري: كيف تنالون من رجل يقول مادحاً:

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار!

ويقول مادحاً أيضاً:

فما فاته جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير

ويقول في الخمر:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم!

وكان يقول: والله إن أبا نواس لحق من كانوا قبله، وفات من جاءوا بعده.

قلت: ولقد نقل التاريخ إلينا أن ابن الأعرابي امتحن جلساءه

في أشعر الناس فاستشهد كل منهم ببيت من شعرك.

فقال ضاحكاً: يظهر أن ابن الأعرابي كان لا يجالس إلا من يفهمون... وسألني هل تذكر شيئاً مما استجادوه من شعري؟

قلت: أذكر هذا البيت في وصف كأس الخمر، وقد تصاعد حببها من خلالها:

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

فقال: ألم يحدثكم التاريخ عن رأي أبي العتاهية في شعري؟ لقد سئل من أشعر الناس؟ فقال: جاهليها؟ أو إسلاميها؟ أو مولدها؟ فقيل له: نريد أشعرهم جميعاً. فقال أشعرهم من يقول:

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثني وفوق الذي نثني
وإن جرت الألفاظ يوماً بمدحة لغيرك إنساناً.. فأنت الذي نعني

والذي يقول في الزهد:

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

وأنا صاحب هذا الشعر كما تعلم.. أم تراك لا تعلم؟

قلت: أعلم.

ورويت له ما ذكره الجاحظ من أنه سمع ابن النظام ينشد لأبي نواس شعراً في الخمر ويقول: كأن هذا الفتى تجمع له الكلام فاختار أحسنه!

فقال أبو نواس: هذا صحيح.

وسألته: أيهما الصحيح رواية الجاحظ أم رأى ابن النظام.

فقال ضاحكاً: كلاهما صحيح!

قلت: ولقد قال بعض النقاد إن المعاني حبست عليك وحدك. فأخذت منها حاجتك وفرقت الباقي على الناس!

وهنا غمر البشر وجه أبي نواس وبدا كما لو كان شبابه قد عاد إليه، وقال: نسيت أن أذكر لك أن أبا العتاهية كان يقول:

سبقني أبو نواس إلى أبيات وددت أني سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها... ومن هذه الأبيات قولي:

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر!!

وقولي:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وسألت أبا نواس: كيف عرفت أبا العتاهية؟!

فقال: عرفته وكنا في سن الكهولة، اجتمعنا يوماً عند إسحاق بن إبراهيم بن ميمون وكلانا لا يعرف الآخر. فلما عرفني أبو العتاهية انتقل إلى مكاني، وصافحني، وجلس بجواري، واستنشدني الشعر، فأخذت أنشد أشعاراً لي سخيفة هازلة؛ فأنشدني شعراً له وقلت له:

هذا قول ممتع. فقال: هو خير مما أنشدتني اليوم.. وعجب من أن أحفظ شعري السخيف ولا أذكر شيئاً من شعري الجيد ثم سألني عن قصيدتي في الفضل بن الربيع التي قلتها مستشفعاً به للخروج من السجن، فأنشدتها له وفيها أقول:

قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفك الله

فقال أبو العتاهية: ما عليك ألا تقول بعد هذا شيئاً.. قد كنت والله أحب أن أسبقك إليه!

وقلت لأبي نواس: أولم يكن لك في البصرة غرام طبيعي أو شاذ؟!

فقال: دعنا من هذا الحديث.

قلت: لقد علمنا أنك أحببت عنان.

فقال: بل جننت بها! ولكني لا أريد أن أتكلم عنها.. ألا يهمك أن تعرف كيف ذهبت إلى بغداد.. كيف عرفت هارون الرشيد؟! كيف جذبتني دار السلام إليها بأضوائها، وخمرها، وغلمانها وقيانها وعلمائها وشعرائها.. بملحديها ومؤمنيها؟

قلت: إن هذا يهمني وأريد أن تحدثني عنه.. ولكن هناك شيئاً هاماً يجب أن نزيح عنه الستار.. وهو حبك لعنان الجارية، الشاعرة الساحرة!

فقال: إن غرامي في البصرة ليس له أول ولا آخر.. وأخشى إذا تحدثنا عن الغرام أن تضطرني للحديث عن الزواج!

فسألته: هل تزوجت؟

فقال: إما أن نتحدث اليوم عن الحب أو نتحدث عن الزواج؟

فقلت: بل حدثني عن الزواج!

فقال: عندما عدت إلى البصرة، تجمع أهلي حولي، وأسدوا لي النصيحة، أن أحتشم، وأصطنع الوقار، وقلت لهم إن هذا ما صممت العزم عليه. فقالوا إن الزواج سيساعدك على تنفيذ عزمك وسألوني: ماذا لو تزوجت امرأة من أهل بيتك حتى تقلع عن بعض ما أنت فيه. فعارضت في الزواج ولكنهم ما زالوا بي حتى زوجوني جارية من أهل بيتي وهم يعتقدون أنها جميلة، وربما كانت كذلك.

ولكني لم أكد أدخل بها، ليلة الزواج حتى أعرضت عنها، وفررت من البيت واجتمعت بأصدقائي...

قلت: أصدقاء أم صديقات؟

فقال: أصدقاء. رجال وأشباه رجال!

ولقد أرسلت إليها أبياتاً أعلنت فيها طلاقي منها.. قلت:

.... تحملي طالقة واذهبي!

مري فكم مثلك من حرة رائعة لم تك من مذهبي!

لا أدخل الجحر يدي طائعاً   أخشى من الحية والعقرب!

ولم أرها بعد ذلك أبداً..

قلت: هل تزوجت مرة أخرى؟

– كلا!

قلت: ولكنك أشرت في شعرك إلى أن لك أولاداً!

– لا أظن!

قلت: ألم تقل:

ألا إن بنتي بنت من لم ابنة   ولا ابناً سواها قد تبر وتؤنس؟

فقال: هذا حديث يطول شرحه.. وكنت أود أن ننتقل فوراً إلى بغداد.. دار السلام. معقل الخلافة.. مدينة العلم واللهو..

قلت: سننتقل إليها حتماً.. ولكن بعد أن نعرف من هم أولادك، وكيف كان حبك لعنان، ومجونها معك، وهجوها لك!!

فقال: ليس اليوم ولا غداً.

قلت: بل غداً...

فقال: إن شاء الله!

عنان التي أحبها أبو نواس!!

أبناؤه.. ونساؤه.. وبنات أفكاره؟

قلت لأبي نواس: ستحدثني اليوم عن أبنائك.. فقاطعني قائلاً: أي أبناء؟

– ألم تنجب أبناء؟

فقال: لقد تزوجت مرة واحدة، وطلقت زوجتي ليلة الزواج.. طلقتها قبل أن أدخل بها. فلم أنجب منها بنات ولا بنين.

– ألم تعرف نساء عن غير طريق الزواج؟

– عرف كثيرات!

– لعلك أنجبت منهن أولاداً.

– لا أظن!

– ولكنك ذكرت في شعرك أسماء أولادك..

فقال: وما هو هذا الشعر؟

– ألم تقل وأنت في ضيافة الخصيب بمصر:

"لباب" تكبري فوق الجواري فـإن أبـاك أعتبـه الزمـان؟

وفي ديوان شعرك رثاء لولدك الذي مات: "على حين كانت كبرة ومشيب".

وفي ديوانك أيضاً أبيات عن بنتك "بر" أو "برة" وقد طلبت إليها أن تبرك حياً وميتاً.

ولما أطلق الأمين سراحك من السجن الذي أودعك فيه هارون الرشيد قلت: "لولا أبو العباس ما نظرت عيني إلى ولده"! فمن هي بنتك "لباب" وبنتك "برة" ومن هو ولدك الذي مات بعد ما بلغت المشيب.. ومن هو ولدك الذي نظرت إليه بعدما تفتحت لك أبواب السجن؟".

فقال: أخشى أن أفجعك إذا قلت الحقيقة!

– افجعني.. وقل الحقيقة!

فقال: الحقيقة أني لم أنجب أبناء..

– فماذا تعني بذكر الولد في معرض الحنين، وفي معرض الرثاء.

فقال: ربما كان ذلك خيالاً.. أو تشبيهاً.. أو محاكاة!

– وبنتك "لباب".. وبنتك "برة".. هل هما أيضاً من بنات أفكارك؟

فقال: هل تريد أن أفجعك مرة أخرى؟

– افجعني!

فقال: صدقني إذا قلت لك إني لم أسلك طريقاً يؤدي إلى أن أنجب أولاداً..

قلت: تعني أنك لم تسلك طريق الحلال؟

فقال: ولا طريق الحرام!

– والنساء اللاتي عرفتهن؟

فقال: لقد عاملتهن كما لو كن غير نساء!

– ماذا تعني؟

فقال: أنت تعلم ماذا أعني!

– ولكني أريدك على أن تفصح... فدع الخجل وتكلم بصراحة!

فقال: إن من يعمل بصراحة، لا يخجله أن يتكلم بصراحة. ولكن التلميح كثيراً ما يغني عن التصريح. والتلميح في هذا الوطن بالذات يغني ولا شك عن التصريح!

– لماذا إذن أكثرت من الإشارة في شعرك إلى أن لك بنات وبنين؟!

فقال: بعث هذه الإشارات من قبيل المباهاة أو استدرار العطف، مثل إشارتي في قصيدتي التي قلتها بعدما أطلق الأمين سراحي من السجن الذي أودعني فيه أبوه هارون الرشيد.. فقد قلت:

إنـــي أتيتكمـــو مـــن القبـــر والنـــاس مجتمعـــون للحشـــر
لـولا أبـو العبـاس مـا نظـرت عينـــي إلـى "ولـد" ولا وقـر

فقد تشفعت بالفضل بين الربيع لدى الأمين كي يخرجني من السجن.. وأردت أن يشعر الأمين بأنه أطلق سراح رجل له أولاد يحن إليهم ويحنون إليه. وكان هذا شيئاً مألوفاً عندنا. مثل التفاخر بالآباء والأجداد. وما أكثر الذين تباهوا بآبائهم وهم أنفسهم لا يعلمون شيئاً عن هؤلاء الآباء!

– وماذا عنيت بالأبيات التي تمثلت فيها أن بينك وبين الدهر ثأراً لوفاة ابنك "على حين حانت كبرة ومشيب"؟

فقال: هذه أبيات رثيت فيها صديقاً يصغرني سناً. فهو في منزلة ولدي، لو أن لي ولداً.

– وأبياتك في "برة"؟

فقال: لقد نسيت المناسبة التي قلت فيها هذه الأبيات.. ولعلها قيلت على لسان أحد من أصدقائي. فقد كنا نقول الشعر على ألسنة غيرنا.

– ومن "لباب" التي تكلمت عنها في مصر؟

فابتسم وقال: هل تريد أن أفجعك مرة ثالثة؟

فقلت: افجعني.. ثالثة.. ورابعة.. وعاشرة!

فقال: أنت تعلم أني زرت مصر، قاصداً أميرها الخصيب.

– في أي سنة تمت هذه الزيارة فقال حوالي ١٨٦.

وأطرق طويلاً.. فسألته: فيم تفكر؟

فقال: إن أسئلتك الاعتراضية أنستني ما كنا نتحدث فيه!

–كنا نتحدث عن زيارة مصر لمناسبة ابنتك المزعومة "لباب"!

فقال: لما زرت مصر وقابلني أميرها، وأنشدت بين يديه قصائدي. تجمع الشعراء حولي. بعضهم أبدى إعجابه بي. وبعضهم أعلن تبرمه بي، وبعضهم أخفى كراهيته لي.. ولكنهم جميعاً كانوا يتوددون إليَّ وخاصة بعد أن اشترطت على الأمير أن يمنحهم الجوائز على ما لم يسمعه من أشعارهم!

– لقد سبق أن حدثتني عن هذه المسألة.

فقال: لا تعترضني حتى استطيع مواصلة الحديث.

– لن أعترضك!

فقال: أردت أن أنقل إلى مصر جو بغداد، والبصرة، والكوفة..

أردت أن أجعل من مصر مسرحاً للفسوق، والمجون، والزندقة، وخيل لي أنه من اليسير على مثلي أن يحظى بما يشاء من لهو بريء وغير بريء... فأنفقت المال على من حولي من الشعراء والأدباء.. أنفقته بسخاء وجنون! طلبت الخمر فوجدتها.. وجدتها معتقة.. وطازجة، وجدتها عصير بلح، ونبيذاً.. طلبت النساء فوجدتهن.. ثم تجرأت وبحثت عن الغلمان... وذهبت مع جماعة من أهل مصر إلى مكان ناء على شاطئ النيل، بالقرب من الفسطاط آملاً أن أجد هناك بغيتي وإذا ثلة من الشباب الحلو الرقيق البض.. قد أعدوا لنا بساط الشراب.. على حافة الماء بين مروج النخيل والشجر، في ضوء القمر.. في ساعة السحر! وقبل أن تلعب بي الخمر كنت قد لعبت بها، وهممت بمعانقة أحد الشبان وإذا هم جميعاً يمسكون بتلابيبي ويطرحونني أرضاً، وينهالون على جسمي ضرباً بالسياط، والعصى، ويتركونني ملقى في الطريق بين الحياة والموت... وبحثت عمن كانوا معي فإذا هم قد تفرقوا جميعاً، ولما أصبح الصباح، أخذت أجمع شتات نفسي، وشتات جسمي، وسرت على قدمي، حتى وجدت مركباً عدت فيه إلى منية الخصيب، وهناك أقمت في رحاب الخصيب بقية أيام الزيارة، ولم أكاشفه بما حدث لي، ولما تركت مصر، أخذت معي حقدي عليها، وعلى أهلها، فزعمت أني أحببت فيها وعاشرت نساءها. وأنجبت منهن بنات كثيرات.. وجعلت من

بينهن "لباب" هذه التي وردت في بعض أشعاري!

وابتسم وقال: لست الآن حاقداً على مصر! ولهذا قلت لك الحقيقة!

قلت: لقد وعدتني أن نذهب إلى بغداد.. ولكني طلبت إليك أن تحدثني أولاً عن زواجك وأولادك وعن علاقتك بعنان.. ولقد حدثتني عن الزواج والأولاد.. وبقى أن تحدثني عن علاقتك بعنان!

فقال: هل يعنيك أن أحدثك عن عنان!

يعنيني ذلك ويسرني... ولا شك أن الحديث عن عنان يعيد إليك شبابك.

فقال: لعنة الله عليها..

– أتلعنها بعد ما أحببتها!

فقال: لأني أحببتها.. ألعنها!

– ألم تكن تحبك؟

فقال: كانت بذيئة، هجاءة، سليطة اللسان.. وقد عرفتها، وهي جارية من جواري "الناطفي" ونمت المودة بينها وبيني، فقد كانت ذكية، رشيقة، جذابة. وكانت تقول الشعر، وتروي كثيراً من أشعار القدامى والمحدثين، وبقدر ما أشادت بي، وهتفت بذكري، قبل أن

نلتقي.. هاجمتني، وهجتني، وأصبحت سوط عذاب يلهب سمعتي، ويمزق عرضي، وقد ظلت العلاقة قائمة بيننا فترة طويلة، والحق أني لم أضق بسفاهتها إلا عندما تناولت أمي بلسانها الوقح البذيء.

حدث ذلك يوم أن سلطت سفهاء الكرخ والعيارين أن يمشوا إلي في جمع كبير وينشدوا أبياتاً سخيفة قالت فيها:

أبـــو النـــواس اليمـــاني وأمـــــه جلبـــــان!

إلى آخر ما قالت:

– من هم العيارون هؤلاء؟

فقال: العيارون غلمان لا عمل لهم إلا السب والشتم وقد أفهمتهم أن أمي كانت تجمع أولاد الزنى في بيتها وتربيهم، لغرض في نفسها! وشاعت هذه القصة، وتعقبتني في بغداد...

– أيتها التي تعقبتك إلى بغداد.. القصة أم عنان؟

فقال: كلتاهما.. فإن عنان أيضاً قد جاءت بغداد، ولما عرف الفضل بن الربيع أنها أشاعت عني ما أشاعت، قال لي: إذا أخجلتها أمامنا فلك عندي ما تريد.. واجتمعنا في مجلس وحاولت أن أخجلها بذكر أشياء يندى لها الجبين.. ولكنها كانت امرأة وقاحاً فقد أخجلت الرجال ولم تخجل..

أقول لها أريدك يا عنان.

فتقول: وأين ذهبت أمك.. إنها بك أولى!

– هذه المناوشات جرت بينك وبينها أمام الفضل بن الربيع؟!

فقال: وأمام الرشيد أيضاً..

– هارون الرشيد الخليفة؟!

فقال: نعم!

– ولو تركتني من حديث عنان لذهبنا معاً إلى بغداد، وعشنا في قصر الخليفة وقصور البرامكة، وشهدنا المعركة الكبرى بين حزب العرب وحزب الفرس، ونكبة البرامكة.. وأحاديث الهوى، والعشق والغرام.. ولكنك تأبى إلا أن نتحدث عن عنان!

– دعنا من عنان ولنذهب الآن إلى بغداد.

فقال: الآن لا أستطيع... غداً نذهب إلى بغداد!

المدينة التي لا يموت فيها خليفة أبداً

أولى ليالي أبو نواس في بغداد..

قال أبو نواس: لقد اتفقنا على أن نذهب إلى مدينة السلام.. أليس كذلك؟

– اتفقنا على الذهاب إلى بغداد.

فقال: إن بغداد هي دار السلام. هكذا سماها من بناها!

– ومن الذي بناها؟

فقال: الخليفة أبو جعفر المنصور.

– في أي سنة كان ذلك؟

فقال: بناها في سنة ١٤٥ أو نحو ذلك.

– كأنك أكبر منها سناً!

فقال: هي أقدم مني مولداً.

– ولماذا سماها المنصور مدينة السلام، وقد كان عهد خلافته، محفوفاً بالغدر والختل وسفك الدماء؟

فقال: لقد سماها الفرس بغداد، وقيل في تعليل ذلك أن أمير

المشرق أهدى إلى كسرى ملك الفرس عبيداً وخصياناً، فأقطعه كسرى أرضاً وسماها بغداد ومعناها "عطية الصنم" أي هدية كسرى المعبود.. إذ أن "بغ" بالفارسية صنم و"داد" عطية. ومن أجل هذا كان الفقهاء يكرهون اسم بغداد فينطقونها بغدان.. وبغذاذ.. إلى أن جاء أبو جعفر المنصور، وأنشأ فيها حاضرة الخلافة، فسماها مدينة السلام. وقد أحضر لها المهندسين وأهل المعرفة بالبناء وتوزيع المساحات وتقسيم الأرض، وصور لهم صورة المدينة في نفسه، لينقلوها على الطبيعة.. ثم أحضر الصناع والنجارين، والحفارين، والحدادين، والفعلة، وأجرى عليهم الأرزاق... وكتب إلى كل بلد أن يرسل إليه من يفهمون فيه أمور البناء، ولم يبدأ العمل في إنشاء المدينة حتى تكامل عند الخليفة من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ثم اختط المدينة، وجعلها مدورة، ويقال إنه لا يوجد في أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها!

– وهل كان في بلاد الخلافة في ذلك العهد، أهل معرفة بالبناء؟

فقال: إن الخلاف في ذلك العهد كانت مملكة يمتد سلطانها إلى مصر والشام غرباً، وإلى الهند والصين شرقاً. وكان يخضع لنفوذها بلاد لا حصر لها في الشمال والجنوب. ومن هذه البلاد جميعاً، أي من الدنيا كلها.. جاء أهل المعرفة بالبناء فكأنما اشترك

في بناء بغداد كل أصحاب المعرفة والحذق والمهارة.. ولهذا كانت بغداد للناس جميعاً.. فيها العرب والترك والفرس والهنود.. فيها أبناء موسى وعيسى ومحمد.. ومن على دين المجوس.. ومن ليس لهم دين.. فيها سلالة زرادشت وبوذا وكونفوشيوس.. فيها حضارات مصر، والهند والصين.. فيها صراع مستعر بين العقيدة والفكر.. بين الفلسفة والتصوف.. بين الاستبداد والحرية.. بين الفوضى والقانون.. بين القيود والأيدي.. بين السياط والظهور.. بين الشعراء والشعراء.. والعلماء والعلماء.. بين المتماسكين والمنحلين.. بين المؤمنين بالله والمؤمنين بالشيطان.. والكافرين بالله والشيطان معاً!

ومضى أبو نواس يقول: هل تعلم لماذا بنى أبو جعفر هذه المدينة؟

– يسرني أن أعلم..

فقال: لقد خشي على حياته من الهاشميين، فأراد أن يجعل لخلافته مقراً لا يصل إليه العدو، وقد استشار المنجمين فاختار له أحدهم مكان بغداد، واسم هذا المنجم "نوبخت" وقد جعل للمدينة أربعة أبواب فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة... وإذا جاء أحد من المغرب دخل من باب الشام.. وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسطة اليمامة والبحرين دخل من باب البصرة.. وإذا جاء أحد من المشرق دخل من باب خراسان.. وكان على جميع

أبواب المدينة عسكر كثير.. وحراس شداد. وأحيطت المدينة كلها بالأسوار.. وشقت فيها الخنادق وكان باب قصر الخليفة مقابلاً لباب خراسان. وقد بنيت على كل باب من أبواب المدينة قبة عالية.. وبين كل بابين ثمانية وعشرون برجاً!

ومن أي جاءته فكرة إقامة أبواب للمدينة... هل جاءته من المهندسين أو جاءته من المنجمين؟

فقال: أعتقد أن الفكرة جاءته من المنجمين.. فقد كان أبو جعفر يؤمن بالتنجيم والخرافات، والأساطير والأحلام. كان يروي عن أمه أنها لما ولدته أحست أن أسداً خرج منها وهو يزأر!! وكان يروي أيضاً أن النبي محمداً عليه السلام كان قد قال لأمه إنك حامل بغلام.. فإذا وضعته فأتيني به. فلما وضعته أتت به رسول الله فأذّن في أذنه اليمنى وهمس في أذنه اليسرى. ثم قال لها: اذهبي بأبي الخلفاء.. فلما علم العباس أبو جعفر بذلك.. أتى رسول الله فأجلسه الرسول عن يمينه وقال: "هذا عمي فمن شاء فليباه بعمه!" ثم قال للعباس إن الخلافة لك ولولدك. منهم السفاح.. ومنهم المنصور ومنهم المهدي!

– وهل صدقت هذه الروايات؟

فقال: ليست هذه كل روايات أبي جعفر عن نفسه.. فقد كان يروي أنه رأى النبي في المنام وأنه أوصاه بأمته وقال له: "خذها إليك

يا أبا الخلفاء إلى يوم القيامة!" وقد أمر بكتابة هذه الرؤيا في ألواح الذهب، وعلقت الألواح في أعناق الصبيان!

– وهل كان يعتقد أنه سيظل خليفة إلى يوم القيامة؟!

فقال: نعم؟

– وهل كانت رعيته تعتقد ذلك؟!

فقال: صدق الناس ذلك عندما كانوا أطفالاً.. ثم أصبحوا عقلاء!

واستطرد أبو نواس يقول:

لقد كان أبي جعفر يؤمن بأنه سيشهد بنفسه يوم القيامة.. ولما انتهى من بناء مدينة السلام دعا إليه بعض المنجمين وقال لأحدهم خذ الطالع، فنظر المنجم في طالع الخليفة وقال له:

– إن النجوم يا أمير المؤمنين تدل على طول زمان المدينة، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها.

ثم توقف المنجم عن الكلام وصوب عينيه في أمير المؤمنين وقال له: أبشرك –أكرمك الله– بعلامة أخرى من علامات النجوم وهي أنه لا يموت في هذه المدينة خليفة أبداً؟

– وماذا صنع الخليفة للمنجم؟ ألم يأخذ عنقه جزاء له على

استغفاله أمير المؤمنين، وخليفة النبي، وابن أخي رسول الله؟

فقال أبو نواس:

لقد ابتسم الخليفة للمنجم وقال: الحمد لله.. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم!

وأين مات أبو جعفر؟

فقال: ... لم يمت في بغداد خليفة منذ بنيت إلا الخليفة الأمين.. أما أبو جعفر المنصور فقد مات وهو في الحج، بعدما دخل الحرم..

– لقد تولى المهدي الخلافة بعد المنصور فهل مات في الحج أيضاً؟

فقال: مات المهدي في بلدة اسمها "ماسيذان".

– والهادي أين مات؟

فقال: مات الهادي في بلدة "عيساباذ".

– وهارون الرشيد؟

فقال: مات هارون الرشيد في بلدة "طوس".

– إذن صدق المنجمون..

فضحك أبو نواس وقال: بل كذب المنجمون ولو صدقوا.. كما

قال محمد عليه السلام.. فما حدث ليس حدث ليس إلا مصادفات، ومن يدري لعل كثيرين من الخلفاء ممن عاشوا بعدي قد ماتوا وهم في بغداد.

– لقد حدثنا الخطيب البغدادي مثل هذا الحديث وقال إن الخليفة المأمون مات بعيداً عن بغداد، وإن المعتصم مات في بلدة "سر من رأى"، وكل من ولى الخلافة عقبه ماتوا بعيداً عن بغداد ما عدا المعتمد والمعتضد والمكتفي فإنهم ماتوا في قصور بغداد!

فقال أبو نواس: إن من يتأمل في الطريقة التي بنى بها أبو جعفر مدينة بغداد يعتقد أنه أراد أن يحصن نفسه من أعدائه، بل من الموت نفسه.. فقد جعل لها من الشرق والغرب والشمال والجنوب أبواباً..

– لقد حدثتني عن هذه الأبواب!

فقال: ولكني لم أحدثك عن متانتها، وطريقة صنعها. كان لكل باب منها بابان، باب دونه باب.. وبين البابين دهليز متين ورحبة واسعة.

– هذا تفصيل لا جدوى منه!

فقال: هل تعرف من أين جاء بهذه الأبواب؟ لقد جاء بها من بلدة واسط، وقيل لنا إنها أبواب الحجاج، وإن الحجاج كان قد

وجدها على مدينة بناها النبي سليمان بن داود وكانت تعرف باسم "زندورد" وعدد هذه الأبواب خمسة... أما باب خراسان فجيء به من الشام وهو من صنع الفراعنة!

وقد جيء بالباب المؤدي إلى الكوفة من الكوفة نفسها.. وأضعف الأبواب كان الباب المؤدي إلى الشام وقد صنعه أبو جعفر بوساطة عماله.

– وكيف كان قصر الخليفة؟

فقال: كان فخماً، ضخماً، فسيح الأرجاء، شامخ البناء، وكان في وسط القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعاً وفوقه قبة، على رأسها تمثال فرس يمتطيه فارس في يده رمح... وكان ارتفاع القبة ثمانين ذراعاً، فكان الناس يرونها من جميع أطراف بغداد.. وكان هذا التمثال يتحرك والفارس فوقه، والرمح في يد الفارس.. كلما وقع حادث في جهة من الجهات فيعلم الخليفة أن حادثاً وقع قبل أن تأتيه التفصيلات!

وكان مجلس المنصور ينعقد على القباب المنصورية فوق أبواب المدينة.. وكل قبة منها مزخرفة عالية ذاهبة في السماء.

– وأين كان موقع القصر؟

فقال: كان بالقرب من نهر دجلة، وقد سماه قصر الخلد، تشبيهاً له بجنة الخلد!

وقد فرش بالديباج والحرير وصنعت أرضه وجدرانه من العاج والمرمر والرخام والأخشاب الغالية. وكانت حماماته آية في الفخامة والرواء. وقد زينت مداخل القصر، وأبهاؤه، بالتماثيل، والتهاويل، وفرشت بالسجاد المجلوب من فارس!

وحدث أن زارت بغداد وفود من ملوك الروم، ونزلوا ضيوفاً على الخليفة في قصره، وأبدوا إعجابهم بما رأوا من مظاهر العظمة والفخامة، ولكن أحدهم قال للخليفة: إنك بنيت بناء لم يبنه أحد من قبلك.. غير أن في ثلاثة عيوب.. بعده عن الماء ولا بد للناس من ماء لشفاههم.. وليس فيه بستان والعين تشتاق إلى الخضرة.. ووجود رعيتك معك في بناء واحد بسبب هذه الأسواق الداخلة فيه، وإذا كانت الرعية مع الملك فقد فشت أسراره!

فقال الخليفة: أما العيب الأول فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا!.. وأما العيب الثاني فإنا لم نخلف للهو واللعب..

وأما العيب الثالث فليس عيباً لأنه لا يوجد سر دون رعيتي!

– لقد كان خليفة شعبياً إذن!

فقال أبو النواس: كلا.. ولقد قال هذا الكلام من باب المكابرة، فلم تكد الوفود تبارح بغداد حتى أمر بمد قناتين من دجلة إلى القصر، ونقل الأسواق إلى بلدة الكرخ وغرس البساتين حول قصره..

ومضى يقول: هذا القصر العظيم.. لم أره في عهد المنصور بطبيعة الحال، وكل ما قلته لك ليس إلا حكايات سمعتها من الرواة. وقد ظل قصر المنصور في بغداد معقلاً للخلافة.. وجدت بعده قصور أكثر عظمة وفخامة، كانت كلها لهارون الرشيد والبرامكة... وفي عصر هارون الرشيد ذهبت إلى بغداد، وكانت تموج بالدسائس والفتن السياسية، كان فيها حزبان: حزب العرب ويتزعمه الفضل بين الربيع وتسنده داخل القصر زبيدة زوجة هرون الرشيد.. أما الحزب الآخر فهو حزب البرامكة، وكانوا حاكمين بأمرهم.. كانوا يحكمون الرعية ويحكمون الخليفة، كانوا أقوياء، رأسهم الكبير شيخ حنكته التجارب والعلوم وهو يحيى بن البرمكي، وولداه جعفر وخالد تقاسما الهيل والهيلمان والقوة والسطوة وكانوا يعاملون هارون الرشيد كما لو كان طفلاً.. وفي الحق أنه كان طفلاً له شارب ولحية وعمامة وسيف.. كانوا هم وحزب العرب بزعامة ابن الربيع وزبيدة يتقاذفونه بالأقدام..

– كان كرة؟!

فقال: الكرة تتقاذفها الأيدي.

– توجد في أيامنا رياضة تسمى كرة القدم.

فابتسم وقال: كان هارون بين حزب العرب وحزب الفرس فعلاً.. كرة القدم!

كان همه أن يشرب ليلهو.. ويلهو ليشرب.. ويجمع الشعراء والفساق حوله ليعرف الدنيا.. ويجمع الفقهاء والعلماء ليدخلوه الجنة!

ولما وصلت إلى بغداد كانت الفتنة قائمة على قدم وساق، ولكني كنت أريد أن أصل إلى الخليفة.. أريد جوائزه وعطاياه.. أريد ذهبه لأنفقه على لذتي ومتعتي.. وكان أمامي طريقان.. طريق الفضل بن الربيع ولكنه طريق شائك، وطريق البرامكة وهو طريق مزدحم بالرائحين والغادين والواقفين والمنتظرين.

وهدتني الفطنة إلى أن أبعد عن البيئة السياسية حتى أتبين الأمور، فلم أكد أصل إلى بغداد حتى التقيت بأصدقائي من الشعراء والمجان والشبان وكنت قد عرفت بعضهم في البصرة، وعرفت بعضهم الآخر في الكوفة، وكانت جواري الخليفة يهربن من قصره، ويختلطن بصديقاتهن من جواري السراة والأشراف والأمراء، وقد استطعت منذ الليلة الأولى أن أندمج في هذا الجو العابق بأنفاس اللذة، والمجون، والشراب، والدخان..

وقد أمضيت أول ليلة في حانة ضمت عنان لعنة الله عليها... ومطيع بن إياس وحماداً وكثيرين من شباب بغداد بينهم النصراني والمسلم واليهودي المجوسي، وكانت هذه الحانة على شاطئ دجلة.. وقد فرشت مداخلها بأغصان الورود والريحان وألياف النخيل وأعواد الكروم..

ووقفت أواني الخمر الضخمة الكبيرة على أبوابها كما لو كانت حراساً! وتدلت منها وحولها عناقيد العنب.. والنهر من جانب.. والبستان من جانب.. فعن اليمين جداول منسوقة.. وعن الشمال حدائق وكروم!

وقد خصتنا صاحبة الحانة بمكان جميل هادي، وأخذنا نشرب ونلهو نتبادل السمر والدعابة والشعر المرتجل... إلى أن عقدت الخمر ألسنتنا فكنا نتفاهم بالإشارة.. نتفاهم على طلب المزيد من الشراب... كل منا سكران، وكل منا يريد أن يشرب:

فكل كف رآها ظنها قدحاً   وكل شخص رآه ظنه الساقي!

وقد كنت أكثرهم نهماً وظمأ... لم أكن أشرب كوزاً.. بل كنت أشرب دنا.. كنت أستل ما في الدن، وأدعه فارغاً.. جسداً بلا روح!

مازلت أستل روح الدن في لطفٍ   وأستقي دمه من جوف مجروحِ
حتى انثنيت ولي روحان في جسدي   والدن منطرح جسماً بلا روحِ!

وقد اكتشفنا في آخر الليل أننا جئنا الحانة وليس مع أحد منا دينار ولا درهم... وارتابت صاحبة الحانة في أمرنا فطالبتنا بالأجر فكاشفناه بالحقيقة وطلبنا إليها أن تطلق سراحنا على أن نعود إليها في الغداة ومعنا أجر الخمر والطعام... ولكنها أبت إلا أن تستبقي واحداً منا، رهناً... فقبلنا، وقالت إنها ستتولى بنفسها اختيار الرهن وخشيت أن تختارني.. فقد كانت عجوزاً، رومية، قبيحة.. ووقع ما

خشيت، وأطلقت سراحهم جميعاً واستبقتني عندها... وقلت في ذلك شعراً...

– ماذا قلت؟

أبو نواس في حانات بغداد!!

الأمين يبحث عن نديمه شهراً ليشرب معه!

قلت: لأبي نواس: هاتها!

فقال: ماذا؟ الخمر؟ ليس عندي خمر؟

– هات قصيدتك في الحانة التي استبقتك صاحبتها رهناً عندها... فقد وعدتني أمس بهذه القصيدة؟

فقال: أي الحانات تعني؟

– حانة الرومية العجوز "حنون" التي ذهبت إليها في صحبة إخوان السوء ولم يكن معكم دينار ولا درهم فأبت إلا أن تستبقي أحدكم رهينة، وكنت أنت الرهينة!

فقال: لقد كنت أنا صاحب فكرة استبقاء أحدنا رهينة ودفعت الثمن غالياً!

– دفعته نقداً؟

فقال: يا ليت!

واستطرد يقول: ذهبنا إلى الحانة، كان البرد شديداً. والطريق موحشاً:

ولليـل جلبـاب علينـا وحولنـا فما إن نرى إنساً لديه ولاجناً

إلى أن طرقنا بابها بعد هجعة. فقالت: من الطراق؟ قلنا لها:

إنـــا شـــباب تعارفنـــا ببابـــك.. فقالـــت لنـــا: أهـــلاً وســـهلا ومرحبـــاً

فقلت لها: ما الاسم؟ وما السعر؟ بيني لنـا سـعرها كيمـا نـزورك مـا عشـنا!

فقالـت لنـا: "حنـون" اسـمي.. وسعرها ثـلاث بتسـع... هكـذا غيـركم بعنـا!

فقلـت لهـا: جئنـا وفـي المـال قلـة فهـل لـك فـي أن تقبلـي بعضـنا رهنـا؟

فقالـت لنـا: أنـت الرهينـة عنـدنا متى لـم تفـوا بالمـال خلـدتك السـجنا!!"

فسألت: هل صرت رهينتها فعلا؟

فقال: نعم!!

– وهل ذهبت بك إلى السجن؟

فقال: كان السجن أحب إليّ مما دعتني إليه!

– وكم بقيت عندها؟

فقال: ثلاث ليال!!

– وحدك؟

فقال: وحدنا... هي وأنا!

– وكيف أطلقت سراحك؟

فقال: بعد ما أخذت الثمن!

–كم ديناراً أخذت منك؟

فقال: لم تأخذ مالاً ولكن أخذت أعصابي!

وابتسم وهو يقول: على أي حال لم أعطها مالاً.. ولم أذهب إلى السجن.. ولقد علمني هذا الحادث ألا أطرق باب حانة إلا إذا كان معي من الدنانير ما يكفي لشراء الحانة... حتى لا تتكرر مأساة حنون!

– وهل كانت هذه الحانة أجمل حانات بغداد؟

فقال: كانت أول حانة دخلتها في مدينة السلام.

– هل كان للحانات مكان خاص، تتجمع فيه، كسوق العطارين في الكوفة مثلاً؟

فقال: الحانات في بغداد متفرقة فيها، متناثرة حولها، وقد اختار لها أصحابها أماكن جميلة يحيط بها الزهر والنخيل والشجر ويحف بها ماء النهر بعضها في متناول العين والقدم.. وهذه هي الحانات القائمة في جوف بغداد. وبعضها فوق متناول العيون والأقدام... وهذه هي الحانات القائمة في الضواحي القريبة من بغداد.

– وأي هذه الحانات كان أحب إليك؟

فقال: حانات الضواحي والدساكر... وكنت أحب أن أغشاها ليلاً. أطرق أبوابها وكأني أهاجمها! أدخلها وكأني أسطو عليها! وكان

يسرني اضطراب أصحابها وما أثيره فيهم من الذعر أول الأمر... ثم لا يلبث هذا الذعر أن ينقلب إلى دهشة وترحيب!

- كنت إذن تمثل دور الشرطي وأنت تطرق الأبواب، حتى تخيف أصحاب الحانات؟!

فقال: إن أصحاب الحانات يخافون زوار الليل من اللصوص وقطاع الطريق... لهذا كانوا يغلقون أبوابهم ليلاً ويتركون في الباب ثقباً يسع دخول الكوز وخروجه.. فإذا سمع صاحب الحانة طرقاً أطل من الثقب وسأل: من الطارق؟ إن كان من رواد الحانة أدخله. وإن كان عابر طريق تحدث إليه طويلاً حتى يعرف حقيقته. وإن كان شرطياً أعطاه كوزاً من الخمر حتى يتستر عليه... وإن كان قاطع طريق لا يفتح له الباب أبداً!

وقد كنت أوهم صاحب الحانة بأني من قطاع الطريق. فأطرق الباب بشدة، وأثير ضجة أنا ومن يكون معي من الخلان.

ويطل صاحب الحانة من الثقب فنختبئ عن أنظاره ولا يسمع إلا أصواتنا فيعود إلى داخل الحانة خائفاً.. ثم لا يلبث أن يسمع أصوات ضحكاتنا فيجيء، وقد هدأ روعه:

وبادر نحو الباب سعياً ملبياً	له طرب بالزائرين عجيب
وقال ادخلوا: حييتمو من عصابة	فمنزلكم سهل لدي رحيب
وجاء بمصباح له فأناره	وكل الذي يبغي لديه قريب

فقلنا: أرحنا هات إن كنت بائعاً   فإن الدجى عن ملكه سيغيب

فأبدى لنا صهباء تم شبابها   لها مرح في كأسها ووثوب!!

وقلت لأبي نواس: يظهر أن جميع الحانات كانت متشابهة في البناء والأثاث.. والساق والساقية.. والظلام الدامس والمصباح المنير.. والشجر، والنخيل وأعواد الكروم... والخمور!

قال: نعم.. وكان لكل حانة عدا ذلك.. كلاب تحرسها، وتنبه أصحابها إلى الطراق!

– وكيف كنت تجد المال الذي تنفقه على الخمر كل ليلة؟

فقال: عندما ذهبت إلى بغداد كان معي مال قليل وقد أنفقته على نفسي وعلى أصدقائي من المغنين والشعراء، وهؤلاء تولوا الإنفاق بعد ذلك، إلى أن اتصلت بالخليفة، فكنت أملأ كفى من عطاياه، وأفرغها في بيوت الخمارين!

– وهل كان الخليفة يعلم بذلك؟

فقال: كان يعلم أكثر من ذلك!

– كان يعلم ماذا؟

فقال أبو نواس: لقد اتفقنا على أن نذهب معاً إلى بغداد لأحدثك كيف اتصلت بهارون الرشيد، وكيف حبسني، وكيف أطلق الخليفة الأمين سراحي، ثم حبسني ثم عفا عني... وإني أرى أن الحديث عن

حانات بغداد سيحدث اضطراباً في تسلسل الحوادث التاريخية فدعنا من هذا الحديث الآن!

– حدثنا عن حانات بغداد قبل اتصالك بهارون الرشيد وبعد اتصالك به، وبالأمين بعده، فإذا انتهينا من ذلك.. انتقلنا إلى تاريخك مع الخلفاء والحاكمين.. وأهل السلطان!

فقال: إن حياتي في الحانات متشابهة.. سكر وعربدة، ومجون، وسهر طول الليل وطول النهار!!

– حدثنا عن أصحابك في ارتياد الحانات.

فقال: لقد سبق أن ذكرت لك أسماءهم.. كل المغنين، وكل الشعراء ما عدا أبا العتاهية؟

– كيف كان أصحاب الحانات؟

فقال:

– كانوا رجالاً، وكانوا نساء، وكانوا جميعاً ينشدون الكسب الفاحش.

سألني بعضهم من أنت؟

وقلت إني نحوت الخمر أخطبها قال: الدراهم. هل للمهر إبطاء؟!

– هل كانوا يهوداً؟

فقال: كانوا من اليهود، والمجوس، والنصارى، والمسلمين.

فبعض الحانات:

"أتيح لها مجوسي رقيق"!

وبعضها صاحبها "كريم المحيا، ظاهر الشرك، كافر.. له دين قسيس، وتدبير كاتب وإطراق جبار، وألفاظ شاعر!"

وبعض الحانات كان صاحبها مجوسياً، ومازلت حتى هذه اللحظة أحن إلى واحد منهم هو "سابا شمرا".

– من يكون سابا شمرا هذا؟

فقال: كان أحور العينين جميلاً.

فلما قرعنا بابه هب خائفاً ... وبادر نحو الباب ممتلئاً ذعراً

وقال: من الطراق ليلاً فناءنا؟ ... فقلت له: افتح.. فتية طلبوا خمراً

فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمراً بدراً

فقلت له: م الاسم– حييت؟ قال: ... دعاني بي "سابا" ولقبني "شمرا"

فكدنا جميعاً من حلاوة لفظه ... نجن، ولم نسطع لمنطقه صبراً!

ومضى أبو نواس يقول:

– وقد ذهبنا إلى حانة، وحسبنا صاحبها نصرانياً، فقد كان يشد على وسطه حزاماً، كعادة النصارى، فلما كاشفناه يظننا، ثار وغضب، وقال: كيف تظنون بي ذلك؟

فسألناه: أمسلم أنت؟

فقال: لا.

فقلت: على دين المسيح ابن مريم؟

فأعرض مزوراً، وقال لنا هجرا..

فقد كان يهودياً واسمه السموءل.

– ولكن كيف جرؤ على أن يغضب ليهوديته؟

فقال: لقد غضبت لسمعته.. فقد كان اليهود أبرع الخمارين على الإطلاق.

– وهل كان السموءل هذا بارعاً حقاً؟

فقال: كانت خمره روحاً صافية!

وجــــاء بهــــا زيتيـــــة ذهبيـــــة   فلم نستطع دون السجود لها صبرا
أتينـــا علـــى أن المقـــام ثلاثـــة   فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

– لم أتذكر لي شيئاً عن الخمارين المسلمين!!

فقال: كانوا فاشلين.. ولم يعجبني منهم إلا جابر.

– وكيف كان موقف الخليفة منك؟

فقال: كان الخليفة الأمين لا يطيق بعدي عنه.. كان ينهاني عن الشراب إلا معه.. وقد هددني بقطع رأسي إذا أنا ذهبت إلى

الحانات، ولكني برغم تهديده ظللت أعاقر الخمر سراً...

وقد حدث أن رحلت من بغداد إلى الكوفة، وذهبت إلى حانة جابر، وهي تقع في الحيرة، وكان جابر هذا لطيف الخلقة، نظيف الثياب، يهتم بأدوات الشراب، وقد التقيت عنده بصديقي ابن الصلصال، وكان يعرف شدة شغفي بالخمر، والاستماع إلى الغناء، فقدم لي الشراب، وجمع المغنين وضاربي الطنبور، فامتنعت عن الشراب وقلت له: "ألم تعلم بما حدث لي؟.. لقد نهاني أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدني عليه.." واكتفيت بسماع الأغاني، وشم رائحة الخمر وقلت قصيدتي:

أيهــا الرائحــان بــاللوم لومــا لا أذوق المــدام إلا شــميما!

ولكني لم أطق صبراً على ذلك. فما هي إلا ساعة، حتى وجدتني أشرب الخمر، وكنت أصيح من فرط النشوة والغيظ... "هاتها.. هاتها.." ولعنت الأمين.. وأم الأمين!

ولما عدت إلى بغداد، وقابلت الأمين سألني أين كنت؟ فأخبرته بأني كنت عند صديقي ابن الصلصال. ورويت له ما حدث من امتناعي عن الشراب أول الأمر.. فقال لي وماذا صنعت آخر الأمر؟

فقلت: "شربت والله يا أمير المؤمنين"! فطلب مني أن أشخص إلى صديقي وأتى به إلى أمير المؤمنين؛ وقد أدناه منه وأحب فيه قدرته على الشراب وظل معه إلى أن لقي الأمين مصرعه!

– يبدو أن الأمين كان مولعاً بالخمر؟

فقال: لا أعرف أحداً هام بالخمر كما هام بها أمير المؤمنين الأمين!

– أمير مؤمنين.. ويشرب الخمر؟!

فقال: ليس هذا هو العجب!! ولكن العجب أن يشربها، ويقيم الحد على من يشربها!

– ولكن الأمين كان صديقك!

فقال: وهل الصداقة تمنع من ذكر حقيقة الصديق...؟ لقد أحببته، وكان لا يصبر عني عندما ينشط للشراب، وكان يطلبني بعض الأحيان فلا يكاد يجدني، فيغضب غضباً شديداً وكان بعض ندمائه يحسدني على موضعي منه، فانتهز فرصة غيابي عن الأمين.. وغضب الأمين من هذه الغيبة.. وسبني أمامه وقال له: يا أمير المؤمنين: هذا شخص ينادم السفلة والسوقة، ويغشى الحانات، ويرتكب الفواحش، وإن في منادمته لك تجريحاً لأمير المؤمنين.. فأسكته الأمين وقال له: ألغ هذا الكلام.. فوالله ما ينبغي أن يكون نديم خليفة إلا مثله في أدبه، وظرفه، وعلمه، وكمال خصال. وما غضبت عليه إلا تأسفاً على ما يفوتني منه!

وعقب أبو نواس قائلاً: مثل هذا الإنسان أحبه، ولكني لا

أستطيع أن أتستر على حقيقته.. وهذه الحقيقة هي أنه أولع بالخمر.. ولم يولع بشيء سواها!

واستطرد يقول: وقد حدث أن غبت عن الأمير شهراً، فبعث رسله ليبحثوا عني، وجاءوا إليه، وأخبروه أني كنت أقيم في حانة أحد اليهود، منذ شهر، لا أفيق من السكر، أنا وأصحابي.. فغضب الأمين، وأحضرني بين يديه وقال لي: لقد هممت أن أضرب عنقك. وحلف إذا شربت في حانة مع الناس فإنه سيقتلني، ووضع لي العيون والجواسيس ثم قال لي اخرج من عندي! فخرجت وقد صح عزمي على ترك منادمة الناس والشراب في الحانات خوفاً عن نفسي.

وجفاني الأمين. وبعد أيام بينما كان الأمين في مجلس شرابه طابت نفسه لرؤيتي، فدعاني إليه، فلما التقيت به شكوت إليه ما نالني من غضبه، وسألته الصفح فأقعدني إلى جواره وقال لي:

– "هيه... تظل شهراً في منزل يهودي منتن.. متكئاً على دن مزفت وأنا أطلبك في كل مكان ولا أقدر عليك"؟!

فقلت له يا أمير المؤمنين:

– من تمام العفو ألا تذكر الذنب..

فضحك وسأل ماذا قلت في هذا الشهر من الشعر؟

فأنشدته قصيدتي الرائية وفيها أقول:

إذا ما أتى وقت الصلاة تراهمو يحثونها... حتى تفوتهمو سكرا

فاستحسن الأمين ذلك وقال لغلامه: اسق القوم ولا تسق أبا نواس فقلت له: يا أمير المؤمنين. لم؟! فقال لأنك تصف الساقي إذا ناولك الكأس بأنك قد سقاك كأسين.. كأساً بعينيه وكأساً بيده.. فماذا تقول الآن إذا لم يسقك شيئاً!

فأنشدته قصيدتي البائية.. وفيها أقول:

سقاني ومناني بعينيه منية فكانت إلى قلبي ألذ وأطيبا

فقال الأمين: ويحك.. لم ينج منك الساقي على أي حال.. اسقه يا غلام!

الفهرس